

الثَّقَافَةُ

مجلة شهرية فكرية جامعة تصدر في دمشق

- تأسست عام ١٩٥٨م -

جمادى الاولى ١٤٣٠ هـ
أيار ٢٠٠٩ م

الثقافة

أدبية فكرية جامعة

تصدر شهرياً في دمشق تأسست عام ١٩٥٨

مؤسسها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

FONDATEUR ET REDACTEUR

EN CHEF DE LA REVUE

AL THAKAFA

ص . ب : / ٢٥٧٠ /

هاتف : ٢٣٢٣٠٦١

فاكس : ٢٣٢٠٨٨٧

دمشق

P.O. BOX: 2570

TEL: 2323061

E-Mail: AndreeKara@Mail.sy

هيئة المستشارين :

د. عبد اللطيف اليونس

د. عمر النص

د. سمر روي الفصيل

د. طلعت الرفاعي

أ. فيصل العظيمة

أ. عبد الكريم ناصيف

أ. جابر خير بك

أ. عصام الحلبي

أ. عيسى فتوح

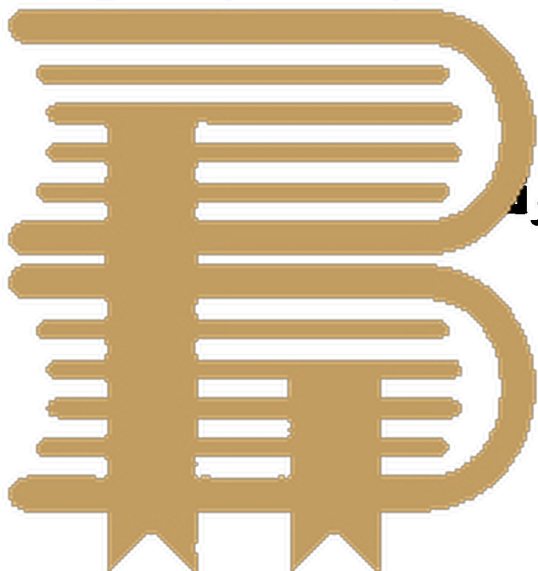
أ. فهد صالح المهنا

شبكة كتب الشيعة

أمينة التحرير : سكيمة عكاش الخبر

جمادى أولى ١٤٣٠ هـ

أيار ٢٠٠٩ م



بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العدد

٣	عيسى فتوح	الشهداء في الشعر العربي المعاصر
١٣	د. سعاد الصباح	لون عينيك..
١٦	محمد عيد الخربوطلي	الترجمة أداة التبادل
		الثقافي والعلمي بين الأمم
٢٠	يوسف عبد الأحد	الأديبة الدكتورة عزيزة مريدن
٢٣	مدحة عكاش	هيام..
٢٤	جوزفين إلياس كوزاك	السلفية والحداثة
٣٣	محمود حمود	امرأة..
٣٤	فاضل السباعي	قصة: الكلام المباح
٣٩	ديالا صالح مشرقي	رحيل..
٤١	حكمت هلال	بطرس البستاني المعلم الخالد
٤٥	سلام مراد	الخطاط حسن المسعود
٤٨	أحمد رضا رحمة	وفاء..
٥٠	إعداد:	التفوق الحضاري العربي في الأندلس

(سلمى خضير - لارا الخيمي - لجين الأيوبي - ليان بولاد - فرح حريستاني - يارا بيلنتو)

الشهداء

في

الشعر

العربي

المعاصر

بقلم:

عيسى فتوح

لا بد من الرجوع إلى التاريخ لمعرفة الأسباب التي دفعت جمال باشا السفاح (١٨٧٢-١٩٢٢) إلى ارتكاب أبشع جريمة في التاريخ في السادس من أيار عام ١٩١٦، ألا وهي إعدام نخبة من رجال الفكر والأدب في كل من دمشق وبيروت، بعد أن عقد لهم محكمة صورية في عاليه، زعم فيها انتماءهم إلى جمعيات عربية سرية، هدفها القضاء على نظام الحكم العثماني الفاسد.

والواقع أن العثمانيين لم يكونوا يجهلون أمر هذه الجمعيات السرية والحركات القومية، لذلك أخذوا يبتئون العيون وينشرون الجواسيس في كل مكان، ليتسقطوا أخبار هؤلاء الأحرار، ويرصدوا تحركاتهم ونشاطاتهم. ولم يكونوا في بادئ الأمر يظهرون القسوة والشدة، كما يبدو من المفاوضات التي عقدها في باريس مع زعماء هذه الحركات برئاسة عبد الحميد الزهراوي، إلا أنهم راحوا يتحينون الفرصة للإيقاع بهم، والقضاء عليهم.

فلما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، ووقفت تركيا ضد الحلفاء، عمدت إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية، وتفتيش القنصليات المعادية لها، فعثرت - كما تزعم - على بعض الوثائق السرية التي تفضح أمر تلك الجماعات العربية، ودعوته الصريحة إلى الحرية والاستقلال، فقبضت على نفر من أقطاب هذه الجمعيات، وفر الآخرون إلى أوروبا ومصر.

عندما أحييت تلك الوثائق إلى الديوان العرفي في عاليه، حكم على نخبة من أعيان الوطنيين بالموت شنقاً، ونفذ حكم الإعدام عام ١٩١٦ في كل من دمشق وبيروت، وحكم غيابياً على أكثر من ستين من الوجهاء، إضافة إلى من عوقبوا بالنفي والسجن.

لقد كان لتلك الحادثة الأليمة رد فعل كبير في نفوس العرب من مقيمين ومهاجرين، إذ وحدت مشاعرهم، وقاربت بين طوائفهم، وألفت بين قلوبهم، وجعلتهم يحسون بالظلم الفادح والأسى المرير، وباعدت بالمقابل شقة الخلاف بين العرب والأتراك، فكان أن فجرت ثورة الشريف حسين في حزيران من العام نفسه، وقد أشار الزهاوي إلى هذا الخلاف بقوله:

بنبي يعرب لا تَأْمَنُوا التَّارِكَ بَعْدَهَا
بنبي يعرب إن الذَّنَابَ تَصُولُ
لَعْمَرِكَ لَيْسَ الْأَمْرُ ذَنْبًا أَصَابَهُ
قَصَاصٌ، وَلَكِنْ يَعْرِبُ وَمَغُولُ

لم يكن في وسع الشعراء المقيمين في الوطن خلال تلك الأيام العصبية أن ينتصروا بشعرهم علنا لهؤلاء الشهداء الذين كانوا القافلة الأولى من الضحايا تقدمها بلادهم في سبيل الأمة العربية، كما يقول الدكتور أمجد الطرابلسي (١)، فقد كان سيف الطغيان مصلتا على الأعناق، وكان الإنسان يؤخذ بالشبهة بله القرار، فانطوي هؤلاء الشعراء على أنفسهم، وقلوبهم تقطر دما ينتظرون اليوم الذي يستطيعون فيه أن ينفسوا عن آلامهم، وينشروا ما نظموا في بكاء شهدائهم، بعكس شعراء المهجر الذين استجابوا لتلك الحادثة الأليمة في حينها، وعبروا عن مشاعرهم أصدق تعبير، كالقروي، والياس فرحات، وأبي الفضل الوليد، وجورج صوايا، والأخوين عقل وشكر الله الجر، ويوسف عساف، وجورج أطلس وغيرهم.

ومهما يكن من أمر فإن الشعراء العرب الذين عانوا من هول هذه الجريمة النكراء، عمدوا إلى إخفاء قصائدهم، وتناقلها بشكل سري، شفاهاً أو كتابة، وإن لم يعمدوا إلى نشرها في الصحف والمجلات، ومن هؤلاء:

- ١ -

محمد الشريقي في قصيدته "هل تذكرين" التي نظمها حين كان سجيناً في قلعة دمشق عام ١٩١٦ ورثى فيها شهداء السادس من أيار الذي علقهم جمال باشا على الجذوع، فتقدموا إلى الموت بلا خوف أو رهبة، والبشر يطفح من وجوههم:

لله شـبـانُ البـلادِ وشـيئـها
باسمِ البـلادِ على الجـذوعِ تـعلّق
يتقدّمون إلى الردي بتبسّم
لا يرهبون الموت وهو مُحَقَّق

(١) شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ص (٥٥).

ثم يتحدى الأتراك، ويتمرد على كيدهم وظلمهم، ويتظاهر بالتفاؤل، لأن هذا الظلم لا بد أن يمحى يوماً ما وهو قريب:

لِيَكِلْ لَنَا الْأَوْغَادُ مَا شَاؤُوا أَذَى
لَا بَدَّ أَنْ الظُّلْمَ يَوْمًا يُمَحِّقُ

جاروا على العرب الكرام وهيمنوا
وتنطعوا في حكمهم وتزندقوا

ويسترسل في وصف مظالم الأتراك، وسرد مساوئ حكمهم، وتضييقهم الخناق على العرب، لإذلالهم وكسر شوكتهم فيقول:

حتّى إذا قلب الزمان مجنّـه

حكموا علينا بالشقاء وأغرقوا

حفرنا لنا حفر المنون تشفياً

وبغوا علينا بغيهم لم يتقوا

ولم يجد مبرراً للنقمة الأتراك على العرب إلا حبهم لوطنهم، هذا الحب الذي أقره الله في جميع الديانات السماوية، ومتى كان الإنسان يعاقب على الحب؟:

نقموا علينا أن نحب بلادنا

والحب في شرع الإله مُصَدِّق

وتبلغ به النقمة مبلغها، فيقدفهم بحمم من بركان غضبه، حتى يجعلهم سفلة ولئاما، قد تجردوا من الأخلاق، ونبذوا الشريعة والدين، واستحلوا كيد الرعية، وقضوا بكل ما يقلقها ويدب الرعب في نفوسها:

ما كنت أخشَبُ أن يسود معاشر

سفل بغير اللؤم لم يتخلّقوا

نبذوا الشريعة واستحلّوا كيدها

وقضوا بما منه الرعية تفرق

وينتهي إلى اتهام جمال باشا بالتسلط والدكتاتورية، والاستبداد بالرأي، والتحكم بالأفراد، فهو لا يعمل إلا بوحى من وجدانه المريض، وهذا في رأيه منتهى الخرق والطيش:

فرد له ما شاء في أحكامه
وتحكّم الأفراد شرع أخرق

- ٢ -

كذلك يتحدى الشاعر حليم دموس الأتراك الذين
أودعوه السجن وحيداً، مهملاً، لو سار جمال باشا
في ظلمته لما استطاع أن يراه، لكنه يستبشر خيراً
بالغد، فلا بد أن يشرق فجر الحرية، وينقشع ظلام
السجن المخيم الذي نشره المستبدون:
أنا في سجن وحيداً أحتسي
خمرة الأتراح لا خمر الدنان
مهملاً في غرفة مظلمة
لو مشى السفايح فيها لا يراني
ليس لي ذنب سوى حريّة
سببت سجنني وقهري وهواني
يا أيها الظلام جوروا واحكموا
وازرعوا السويلات في كل مكان
فغداً ينشق جباب السدجى
ونرى في مطلع الفجر الأمانى

- ٣ -

أما الشاعر خير الدين الزركلي فقد نعى شهداء
السادس من أيار بقصيدة وطنية مؤثرة، تهيج
النفوس، وتوقظ فيها الشعور بالعزة والكرامة، إذ
عرف كيف يستثير العواطف، ويحرك المشاعر
وبيعث فيها الأسى:

نعى نادب العُرب شباتها
فجدد بالنعي أحزانها
بكى كل ذي عزة تريّة
فهج نزاراً وعدنانها
فمن للمدامع ألا تفيض
وترسل كالسيل هتانها
فجائع هن حديث القلوب
وهيهات تسطيع سلوانها

ثم يشير إلى أن شهداء السادس من أيار كانوا
في طليعة مثقفي الأمة العربية ممن أتقنوا الشعر
والأدب واللغة والبيان، وعملوا لرفعها وعزها،
ولذلك كانت الخسارة فيهم كبيرة، لا يمكن أن
تعوّض:

نعت لغة العرب من أحكموا
لسان قريش وتبيانها
وناحت على من بنوا عزها
وأعلوا بما أثلوا شأنها

وينتقل بعد ذلك إلى ما كان لهؤلاء الشهداء من
فضل في التعجيل بإعلان الثورة العربية الكبرى
التي اندلعت في حزيران عام ١٩١٦، أي بعد أقل
من شهر واحد من إعدام الشهداء:

أبى السيف إلا انتقاماً لها
وخاف على الضمير خسراتها
أثار بني هاشم في الحجاز
وأطلق في الثرب حساناتها
كتائب هبت تلبى الدعاء
وتطوي القفار وكتبانها
برمح يرن، وعضب يئن
ينبّه في الترك وسنانها

- ٤ -

وهذا هو الشاعر خليل مردم بك ينظم قصيدة
رائعة في ذكرى مرور ثماني سنوات على إعدام
شهداء السادس من أيار، يبدوها بالبكاء عليهم
بكاء مرأ، ويعبر فيها عن الألم العميق الذي سيظل
يحس به أهل الشام على مر السنين:

لا هم دمع من طول البكا نفدا
فهب لعيني ما أبكى به الشهداء
وما الدموع وإن جادت بمنجدة
فاجعل لها من دمي أو مهجتي مددا
لؤم بمن لا يريق الدمع تكرمة
لمن أريق دماهم للبلاد فدا

في مثلِ ذا اليومِ في هذا المكانِ على
هذي الجذوعِ علتِ أرواحُهُمْ صُغداً

ثم يتحدث عن أثر هذه الذكرى الأليمة في النفوس، فهي تجدد الحزن والجوى، وتقرح القلب والعينين، ولذلك ترى ظل الكآبة ممدوداً في كل مكان:

هل تذكرون؟ وما بالعهد من قدم
يوماً أراكم ضحاه طالعاً أبداً
فلو تراهم على الأعواد ماثلةً
أجسامُهُمْ لفقدت الصبر والجَلداً
تواجه الشمس منهم أوجهاً نضرت
كالماس في الشمس للاء إذا اتقدا
كان إطرأقُهُمْ في طول صمتهم
كمن يراجع معنى رائعاً شرداً

ولا شك في أن الشاعر خليل مردم بك كان صاحب مدرسة فريدة في النظم، تقوم على الوصف، وتعتمد حاسة البصر بالدرجة الأولى، يمدّها خيال وثاب، حتى لتغدو الصورة لوحة حية، ترتاب فيها العين، فتتقراها اليدان باللمس.

إن شعره حافل بمثل هذه الصور البديعة، رغم الإطار القاتم الذي يحيط بها، وهل هنالك أبدع من تصويره إغضاء الشهداء بإغضاء الكريم عن الإساءة، وتشبيهه أعناقهم المائلة بقطيع أنهكه العطش فورد الماء ليشرب؟:

كان إغضاء هم إغضاء ذي كرم
عن الإساءة خلقاً طاهراً وهدي
ومشربين بالأعناق تحسبهم
ورداً من الهيم نحو الماء قد وردا
تهفو رقابهم نحو السماء كمن
له بها حاجة إدراكها بغدا

ثم يؤكد لنا أن الشهيد أجل في النفس من ملك فوق سريرته، وما الصحيفة التي تعلق على صدره، إلا وسام فخر يشهد له بالمجد والرفعة:

أقسمت بالله للمصلوب في شرف
أمسى على الجذع مثل الشلّو منفرداً
أجل في النفس من ملك تحف به
جلالة الملك إن فوق السرير بدا
صحيفة الحكم في صدر الشهيد غدت
وسام فخر له بالمجد قد شهدا

- ٥ -

أما الشاعر عدنان مردم بك، فقد تأثر خطوات والده في الشعر، وزاد بأن أصدر ثلاثة دواوين هي: "تجوى" و "صفحة ذكرى" و "عبير من دمشق" إضافة إلى عشر مسرحيات شعرية، نهج فيها نهج شوقي وعزيز أباظة، ولا يعنينا الآن من شعره إلا قصيدته "ذكرى يوم الشهداء" التي نظمها عام ١٩٤٤، وألقاها في مهرجان شهداء القومية العربية الذين شنقهم جمال باشا.

تحدث في مستهل القصيدة عن بذل الشهداء السخي، وعطائهم اللامتناهي، وهل هنالك بذل أثمن من أن يضحي الإنسان بروحه، ويقدم دمه رخيصة في سبيل وطنه؟:

يا فتية مهروا المعالي عن رضا
بدمائهم واسترخصوا المبدولاً
هل بعد بذككم الحياة لمن بغى
سبيل المكارم ما يعد جليلاً
قدرتم قيم المكارم حقها
لما طرقتم بابها المقفولاً

ثم يبارك تلك الدماء المسفوحة على التراب، تسقي أرض الوطن العطشى، وتلك الأجساد الذائبة النحيلة التي انتثرت هنا وهناك كأنها شقائق النعمان:

فتباركت تلك الدماء على الثرى
مسفوحة تسقي رباً وطلولاً
وتقدست أجسادكم منثورة
نثر الشقائق رقعة ونحولا

لقد تتلمذ عدنان مردم بك على والده فتأثر به، وسار على نهجه في الوصف والعناية بالتصوير،

فلا غرو أن يستعير أحياناً بعض صورهِ وأخيلته،
وقد مر بنا كيف شبه الشهداء المعلقين، وقد التوت
أعناقهم، بقطيع عطشان ورد الماء ليشرب:

ومشـرربين بالأعناق تحسبهم
ورداً من الهيم نحو الماء قد وردا
فاستخدم عدنان هذه الصورة بقلب آخر قائلاً:

وأتيتم ورد المنية ظلعاً
تتراحمون مناكباً وتلـيلا
وكأنكم هيم عطاش تبتغي
ورداً لتطفئ حرقلةً وغليلا

والفرق بينهما أن الأب أوجز فجمع الصورة في
بيت واحد، وأسهب الابن فجعلها في بيتين، ولا
شك في أن التوفيق قد حالف كلا منهما صياغة،
والفاظا، وحسن سبك.

ويتساءل الشاعر بدهشة كيف يتسابق الشهداء
إلى شرب كأس المنية، بلا مبالاة، ويقسم أن تلك
الشجاعة قد جاوزت حدود المعقول:

شهداء جلق ما أجل نضالكم
حين انبريتم فتيةً وكهولا
عجباً أفي ورد المنون تـزاحم
هذا لعنرك جاوز المعقولا

ويعلل السبب الذي دفع الشهداء إلى مناوأة
الأتراك والثورة عليهم، فيجده في رفضهم حياة
الذل والعبودية والاستسلام، وضيقهم بالقهر
والعيش المرذول، ولذلك ثاروا تلك الثورة الجامحة
العمياء، التي خفقت لها قلوب الطغاة خوفاً وهلعاً:

أنفت نفوسكم الركـون على الأذى
واسـتـنـكرت عيشاً لكم مرذولا
فبعثتموها صيحة خفقت لها
كبد الطغاة من الوجيب طويلا

ألا ما كان أكرمهم قادة عبدوا طريق الشهادة
حين فرشوه بجثثهم، وتقبلوا الموت بطيبة خاطر:

أكرم بكم يوم الكريهة قائدا
ورد المنية طائعاً وبسليلا
ويختم قصيدته بحكمة خالدة، هي أن على كل
من أراد أن يحيا حياة حرة كريمة، أن يعد لها
السيف، فالمسافة بين الكرامة والذل خطوة واحدة،
من اجتازها عاش عزيز النفس، مرهوب الجانب،
سيداً:

قل للذي يبغى حياة حرة
هلاً جلوت الصارم المصقولا؟
بين الكرامة والمذلة خطوة
إن تخطها بعش الحياة نبليلا

- ٦ -

لكن الشاعر سليم الزركلي، الذي لم يترك
حادثة من حوادث الوطن إلا نظم فيها، قد خص
الشهداء بقصيدة طويلة عنوانها "شهداء أيار"،
أقيمت في حفلة النادي الأهلي بدمشق، عام ١٩٤٦
— وكانت سورية مغمورة بفرحة جلاء الفرنسيين
عن أراضيها — فلنسمعه يحييهم ويثني على
وفائهم الخالص للأوطان، وأمجاد العروبة الخالدة:

أقوافل الشهداء ماذا
في سمائك من جديد؟
كنت المنائر في الوفاء الـ
محض للمجد التليـذ
تيهي عـلاً فالدهر غيـ
ر الدهر في شر العهود
قد كنت تبكين العـلا
أسفاً على وطن شهيد
وتناشدين المجد يـ
طم كل جبار غيـذ

لم يستطع الشعراء بكاء الشهداء كما كانوا يريدون، فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وخرجت سورية والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية، عادوا إلى ذكريات شهدائهم، وصاروا يعدّون مآثرهم، وقد رفعوهم إلى مصاف الأبطال وافتنوا في تمجيدهم وتقديس أهدافهم، كما فعل الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي في قصيدته "النائحة" التي جاءت في مئة وستين بيتاً تقريباً، حتى أطلق عليها الأستاذ أنيس الخوري المقدسي (١) اسم "معلقة الشهداء"، وهو يصف فيها المشانق، وقبور القتلى في كل من بيروت ودمشق، ويعدد أسماء الشهداء، باكية شبايبهم الغض، طالباً الثأر لهم:

على كل عودٍ صاحبٍ وخليـلٍ
وفي كل بيت رنة وعويلٍ
وفي كل عين عبـرةٌ مَهْرَاقَةٌ
وفي كل صدرٍ أنـةٌ وغليـلٍ

أما شجاعتهم، وهم يقبلون على الموت بجرأة واندفاع، متخذين من حميتهم سلماً يرقون به إلى حبال المشانق، فأمر لا بد أن يقف عنده المرء وقفة دهشة وإكبار وإجلال:

علاها وما غير الحمية سلـمٌ
"شبابٌ تسامى للعلا وكهول"
لقد ركبوا كور المطايا يحثهم
إلى الموت من وادي الحياة رحيل

والشهداء في طليعة رجال الأمة: خلقاً، وفضلاً، وعلماء، وذكاءً، ونبلاً. أناس متحمسون، مخلصون لقوميتهم وقضيتهم، سعوا إلى إنقاذ أمتهم وتحريرها من قبضة المستبدين:

رجال عليهم من سنا الفضل رونقٌ
وللمجد فيهم غرةٌ وحجـولٌ

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ج ١،

وبعد أن يسهب في التغني ببطولات صلاح الدين في حطين، ويقف وقفة طويلة عند فلسطين الجريحة، يعود ليخاطب الشهداء ويبين أنهم عيون المجد في الأيام الحالكة المظلمة، وأنهم صدى الماضي العريق، ورفعة الأمل الوضاء، للشعوب العربية المطعوننة... فليناموا إذن فرحين سعيدين في عليا الجنان، بعد أن جنت البلاد ثمار نضحياتهم، وسارت بالمشاعل التي أوقدوها:

شهداءً يعرب يا عيون المجـ
د في الحلك الشـديـذ
أنتم صدى الماضي البعيـ
د ورفعة الأمل العتيـذ
قروا بما جنت العلا
عيناً وفي خلد مديـذ

إلا أن وصف الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير)، وكان في جملة من حكم عليهم بالموت فنجا، لا يكاد يعادله وصف، إذ تستحيل الصورة عنده لوحة ناطقة، يعجز عن رسمها أي فنان ماهر مبدع، فالشهيد منهم شعاع من نبي، وكتلة من لهب، ولواء من هدى، تسقي دماؤه الأرض حتى الارتواء:

كتلةٌ من لَهَبٍ
في سماءِ العـربِ
ولواءٌ من هـدى
وشعاعٌ من نبي
يا شهيداً دُمُـة
قال يا أرضُ اشـربي
أنـتِ إن لـم تـرتـوي
من دمِ الحـرِّ الأبي
ذلَّ فيك العـربي
واسـبـدْ الأجـنبـي

مَشَوْا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ يَحْدُوهُمْ الرَّدَى
وَالْحَقِّ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَبِيلُ

وَمَا هِيَ إِلَّا ثَوَانٌ، حَتَّى قَضَى الْأَمْرَ، وَفَاضَتْ
أَرْوَاحُ الشَّهْدَاءِ إِلَى بَارْنِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً،
فَاسْتَقْبَلَتْهَا مَلَائِكَةُ الْجَنَّةِ بِالتَّرْحِيبِ، وَسَطَعَتْ نَجُومُ
السَّمَاءِ لِتَهْدِيَهَا سَوَاءَ السَّبِيلِ:

قَبُورُ بَيْيَرُوتَ وَأَخْرَى بِجَلَّاقِ
تُجَرُّ عَلَيْهَا لِلرِّيَّاحِ ذِيُولُ
سَرَتْ رُوحُهُمْ تَطْوِي السَّمَاءَ لِرَبِّهَا
وَمَا غَيْرُ ضَوْءِ الْفَرْقَدِينَ دَلِيلُ

ثُمَّ يَنْتَفِضُ غَضَباً، وَيَعْلَنُ سَخَطُهُ عَلَى
الْإِتِّحَادِيِّينَ الْمُتَعَصِّبِينَ الْجَنَاحَ، وَيَهْدِدُهُمْ بِأَنْ
الْعَرَبُ سِيرِدُونَ الصَّاعِ صَاعِينَ، وَسَيَنْتَقِمُونَ
شَرَّ انْتِقَامٍ لِهَذِهِ الدَّمَاءِ الزَّكِيَّةِ الَّتِي سَفَكَتَ ظُلْماً
وَعَدَراً:

وَلَنْ تَسْكُتَ الْأَيَّامُ عَنْ عَصَبَةٍ جَنَّوْا
وَلَكِنْ بِمَا كَالُوا لَهُمْ سَنَكِيلُ
وَقَدْ سَلَبُوا حُرِيَّةَ النَّاسِ مَذَعَتُوا
وَتِلْكَ مَرَادٌ لِلْحَيَاةِ وَسُؤُولُ
وَصَبَّوْا دَمَاءَ مَنْ شَعُوبٍ بَرِيئَةٍ
فَاخْضَلُوا وَهَدَاتُ بِهَا وَتَلُولُ

لَقَدْ كَانَ الزَّهَّاءُ صَرِيحاً جَدّاً، وَجَرِيئاً إِلَى أَعْدِ
حُدُودِ الْجَرَّاءِ فِي مَرْتَبَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَوَرَّعْ عَنْ
قَذْفِ جَمَالٍ بَاشَا بِأَشْعِ النَّعُوتِ، وَأَحْطَ الصِّفَاتِ،
فَهُوَ قَدْ سَمِيَ جَمَالاً خَطِئاً، وَلَوْ أَنْصَفُوهُ لَسَمَوْهُ
قَبِيحاً، وَيَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَكْبَحَ جَمَاحُ غُرُورِهِ، وَيَضَعُ
حَدّاً لَصَلْفِهِ وَتَبِيهِهِ، فَالْدَّهْرُ قَلْبٌ، وَالْأَيَّامُ دُولُ، وَمَجْدُ
الْعَرَبِ بَاقٍ مَهْمَا حَاوَلَ أَنْ يَحْطَ مِنْهُ:

جَمَالٌ لَأَنْتَ الْقَبِيحُ سَمُوكَ ضَدَّهُ
وَتُوبَكَ إِذْ أَرْقَلْتَ فِيهِ ذَلِيلُ
تَرِيدُ لِمَجْدِ الْعَرَبِ فِيمَا أَتَيْتَهُ
زَوَالاً وَمَجْدُ الْعَرَبِ لَيْسَ يَزُولُ

وَتَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ تَطْلُبُ قَطْعَهُ
فَيَرْتَدُّ عَنْهُ السَّيْفُ وَهُوَ كَلِيلُ
رَوَيْدِكَ لَا تَغْتَرَّ بِالْدَّهْرِ إِنْ صَفَا
وَلَا تَأْمَنِ الْأَيَّامَ فَهِيَ تَسْذُولُ

وَأَيَّةُ جَرَّاءٍ أَبْلَغُ مِنْ اتِّهَامِهِ إِيَّاهُ بِالْقَبِيحِ وَالْدَّنَسِ،
وَوِلَادَتِهِ مِنْ أُمٍّ قَدْ تَوَارَثَتْ الْعَمَى أَبَا عَنْ جَدِّ،
وَتَسْفِيهِ الْعَمَلِ الذَّمِيمِ الَّذِي أَقْدَمَ عَلَيْهِ، فَلَبِسَهُ الْعَارَ
الَّذِي لَنْ يَفَارِقَهُ مَدَى الدَّهْرِ، وَسَتَظِلُّ أَدْرَانَهُ عَالِقَةً
بِهِ مَهْمَا غَسَلْتَ:

فَعَالِكَ لَا يَأْتِيهِ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ
حَصَاةٌ وَفِي تِلْكَ الْحَصَاةِ صَمُولُ
لَقَدْ جُنْتُ أَمْرًا يَا جَمَالُ مَذْمُومًا
وَأَنْفَذْتَ رَأْيًا لَا يَزَالُ يَفِيلُ
فَمَا قَبِيحُ ذَاكَ الْقَتْلِ عَنْكَ بَزَائِلُ
وَلَا دَنَسُ الْإِحْلَاءِ مِنْكَ غَسِيلُ
وَلَا تَتَعَرَّضُ يَا ابْنَ مَوْرُوثَةِ الْعَمَى
لِمَجْدِ بَنِي عَدْنَانَ فَهُوَ أَثِيلُ

وَيَحْذَرُهُ مِنْ صَوْلَةِ الْعَرَبِ، فَهَمَّ كَالْجِبَالِ الشَّمِّ،
وَالصَّخُورِ الصَّلْبَةِ الَّتِي لَا تَتَوَثَّرُ فِيهَا مَعَاوِلُهُ مَهْمَا
كَانَتْ حَادَةً، فَالْعَرَبُ لَنْ يَكُونُوا غَيْرَ الْعَرَبِ، وَالْجِبَالُ
الْعَالِيَةُ لَنْ تَكُونَ سَهُولًا أَبَدًا:

وَرَاءَكَ لَا تَقْرُبُ رَوَاسِيَّ يَعْزِبُ
فَقْرُبُ رَوَاسِيَّهَا عَلَيْكَ وَبِيْلُ
تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ فَمَا الْعَرَبُ غَيْرُهُمْ
وَلَا الشَّمُّ مَنْ وَعَرَ الْجِبَالَ سَهُولُ

- ٩ -

وَمِنْ الْعِرَاقِ أَيْضاً يَرْتَفِعُ صَوْتُ الشَّاعِرِ مُحَمَّدِ
رِضَا الشَّيْبَانِيِّ مِنْبَهَا إِلَى سُوءِ إِدَارَةِ
الْأَتْرَاقِ، وَفَسَادِ حُكْمِهِمْ، وَانْتِشَارِ الْمَظَالِمِ
وَالْتَعَدِيَّاتِ، وَاعْتِقَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ
أَبْنَاءِ

البلاد، وزجهم في السجون والمعتقلات، ثم
توجوا هذه المقابح كلها بتعليق أحرار البلاد على
أعواد المشانق:

أَيْنَ الرهين بأموالٍ لنا ذهبَت
ومن يقيد بإخوانٍ لنا قتلوا
إِما شهيدٌ فيعلَى فوق شاهقة
أو موثقٌ بحبالِ الأسرِ معتقل

- ١٠ -

وإذا جاز لنا أن نلحق الشعر المنثور بالشعر
الموزون، فلا بد لنا أن نعتبر الأنسة ماري عجمي
- صاحبة مجلة العروس التي تأسست في دمشق
عام ١٩١٠ - في طليعة من وقفوا إلى جانب
شهداء السادس من أيار، فزارت السجون
والمعتقلات ووصفتها وصفاً دقيقاً، وهاجمت جمال
باشا في أكثر من مقال، بعد أن رفض شفاعتها في
العفو عن الشهيد بيترو باولي الذي كانت تربطها
به عاطفة حب صادق، وعلاقة هوى صحيح ملك
عليها كل جوارحها، فما إن وقعت الواقعة،
وووريت تلك الأجساد الغضة بعيدة عن أعواد
المشانق، حتى ثارت شجونها، وفاضت دموعها،
فراحت تخاطبهم بهذا الكلام المؤثر:

أما تبرحون غارقين في سباتكم أيها النائمون؟

أما تعبت أجنادكم، وملت من اللصوص بالرمال؟

قوموا، فقد نمتم نوماً طويلاً

إن نفحات الربيع تملأ الفضاء

والأطيّار تتسابق على الأفنان

والجداول تناديكم: "أن هيا عودوا إلينا"

لقد كفى القلوب وجداً وأنينا

لا نستطيع أن نرحب بالربيع وأنتم بعيدون عنا

ولا يطيب لنا فوح الأزهار، وفي الأدواح نفحات
دمائكم البرنية.

عودوا، فقد عادت الورود الحمراء إلى مآقينا.

- ١١ -

فإذا انتقلنا إلى المهجر، لمسنا الإحساس بهول
الفاجرة عند القروي، والياس فرحات، وأبي الفضل

الوليد، ويوسف عساف وسواهم ممن استطاعوا
أن يعبروا عن مشاعرهم بصدق وصراحة، لأنهم
كانوا بعيدين عن مسرح الأحداث، ينعمون بقسط
وافر من الحرية والأمن، ولا يخشون أن تمتد إليهم
يد آثمة، أو سلطة جائرة، فتقتص منهم شر
اقتصاص. يقول القروي في مستهل قصيدته:

خير المطالع تسليم على الشهدا

أزكى الصلاة على أرواحهم أبدا

فلتنحن الهام إجلالاً وتكرمة

لكل حرٍ عن الأوطان مات فدا

ثم يخاطب الشهداء الذين علقتهم على أعواد
المشانق يد جمال باشا الملطخة بدماء الجريمة،
ويبين أن هذه الأعواد وحبالها قد اكتسبت منهم
القداسة والطهر، حتى صار كل شهيد يسجد شكراً
لله على هذه الميتة الشريفة:

قد علقتكم يد الجاني ملطخة

فقدست بكم الأعواد والمسدا

حتى غدا كل حرٍ لو نصبت له

حبل المنون على هذابه سجدا

ويؤكد أن إعدام الشهداء قد لم شمل العرب،
ووجد كلمتهم، وألف بينهم، حتى غدا حبل المشنقة
رباطاً يشد قلوبهم بعضها إلى بعض، وعقدته
عروة توحد معتقداتهم. وهو لم ينظر إلى الشهداء
نظرته إلى أجساد تتدلى متراخية، بل إلى أوسمة
علقت بصدر الأفق، فراحت نجوم السماء تغار منها
وتحسدها على طلعتها البهية، وإشراقها الوضاعة:

بل علّوكم بصدر الأفق أوسمة

منها الثريا تلظى صدرها حسدا

أكرم بحبل غدا للعرب رابطة

وعقدة وحّدت للعرب معتقدا

ويلتفت إلى شباب الأمة العربية، أمل الغد،
وبسمة المستقبل، وسندها القوي، فيستحلفهم

بدماء الشهداء البريئة أن يثأروا من الأتراك الذين
ارتكبوا هذه الحماقة الدامية:
وأنتم يا شباب العرب يا سندا
لأمة لا ترى في غيركم سندا
ناشدتكم بدماء الأبرياء ألا
لا تهذرن دماء الأبرياء سدى

ويسترسل متغنياً بهمة الشبان العرب،
وشجاعتهم في الحرب، وكيف أنهم لا يستكثرون
عدد الأعداء ولا عددهم في الوغى، فما أروعهم
وهم يتقدون حماسة واندفاعاً، ويخوضون غمار
الموت مبتربين بنار حياضه:

تلك الجبابرة الأبطال ما ولدت

للحرب أمثالهم أم ولن تليدا

إن صاحبوا السيف لم يستكثروا عدداً

يوم النزال ولم يستعظموا عدداً

لله أروعهم كالنار متقدداً

يبغي حياض الردى بالنار مبتردا

وأية شجاعة كشجاعتهم النادرة، يقبل الواحد
منهم جرحه معتزلاً فخوراً، ولولا طمعه بأن يجرح
مرة ثانية، لما تمنى تضميده:

يقبل الجرح لو لم يغيره طمع

بغيره ما تمنى أنه ضمدا

وينتهي إلى رسم هذه اللوحة الرائعة البديعة،
إذ يشبه الجرح بقم المجد مبتسماً، ونصل السيف
بلسان راح يلهج بآيات الشكر والتناء على شجاعة
أولئك الشبان الأبطال فيقول:

كأنما الجرح ثغر المجد مبتسماً

والنصل فيه لسان بالتناء شدا

- ١٢ -

أما الشاعر الياس طعمه، أو (أبو الفضل
الوليد) كما كان يسمى نفسه، فقد ثارت ثائرتة على
هذه الجريمة النكراء وراح يصرخ بملء صوته من
وراء البحار مقرعاً، مندداً، منذراً، متوعداً، يغلي
كالمرجل قائلاً:

بسلاد الشام غادرك الكرام
فعيش الحر فيك إذن حرام
لقد كثرت من العرب الضحايا
ولم يهتز في الغمد الحسام

ولا يفوته أن يشير بصراحة إلى أولئك
السفاكين الذين لا ذمة لهم ولا عهد، بل يستحقون
الذم، ويحض العرب على الثورة ضد الأتراك
العلوج، الذين يعتبرون محبة الأوطان جرماً أي
جراً:

وحسام المخافة من علوج

لهم ذم وليس لهم ذمام؟

يرون محبة الأوطان جرماً

به تهوي من الأحرار هام

لقد قتلوا العواطف والمزايا

ففي أحشائنا منها سيها

أنبقى ساكتين بلا حراك

وللثورات حولتنا ضرام؟

إلى أن يخاطب الشهداء واصفاً شجاعتهم
الخارقة، وإقدامهم الرائع، وكيف هجموا على
الموت بخطى ثابتة، وقلوب مطمئنة، وثغور
باسمة، يهتفون بحياة العرب ونصرهم، حتى حيرت
بسالتهم العقول، وأدهشت الألباب:

أيها صبحي الكرام ألا فداكم

لئام بعدما قل الكرام

مشيتم بأسلحين إلى المنايا

وكان لكم على النطع ابتسام

ليحيي العرب قد صحتكم ومثم

فصحتكم لخطتكم دوام

فنحن لى بسالتكم حيارى

وأنتم فوق ذلتنا عظام

والشهداء عند أبي الفضل الوليد منارات تهدي
الناس سواء السبيل، وعند القروي نجوم زهر
تضيء الدروب أمام الشعب الضليل، فالمعنى واحد
تقريباً، ولا غرو أن تتكرر المعاني ما دام
الموضوع المعالج واحداً، يقول القروي:

يا أنجم الوطن الزهر التي سَطَعَتْ
في جو لبنان للشعب الضليل هدى

ويقول أبو الفضل الوليد:
على أعواد مرقية رفعتُم
منارات بها يهْدَى الأنام
وكنتم قذوة للشعب مثلي
فهل يرجى له يوماً قيام؟

ويختتم قصيدته بهذه الحكمة، وهي أن حياة
الشعوب لا تكون إلا بالضحايا التي تحررها من
ربقة الذل والعبودية، وهو نفس المعنى الذي أتى
به أحمد شوقي في قصيدته "تكة دمشق":

يقول أبو الفضل الوليد:
ورب ضحية أحييت شعوباً
فكان لها اعتناق واقتحام

ويقول أحمد شوقي:
ففي القتلى لأجبال حياة
وفي الأسرى فدى لهم وعشق

هذا، ولأبي الفضل الوليد قصائد أخرى على هذا
النسق، كقصيدته "صدى الأجيال"، و"الصرخة
الكبرى"، و"الدولة العربية" ضمها جميعاً ديوانه
(أنفاس ملتبهة).

- ١٣ -

وهذا هو الشاعر المهجري يوسف عساف،
يذكر قومه العرب بمظالم الأتراك، وبالمشائق التي
نصبوها هنا وهناك، حتى وهت أمراسها من كثرة
الضحايا، وبالسجون التي اشتكت جدرانها من كثرة
ما عذب الأحرار داخلها وأزهقت أرواحهم، وبذلك
العدد الكبير ممن صرعوا، أو أبعادوا، أو شردوا،
أو جوعوا حتى الموت:

للتترك فيكم كل يوم وثبة
يردى الذكور بها ويسبى المرهق
كم جندلوا من قومكم كم أبعادوا
من أهلكم، كم جوعوا، كم أرهقوا؟
تلك المشائق قد وهت أمراسها
مما يئس بها، ومما يشنق
تلك السجون قد اشتكت جدرانها
مما يئس بها ومما يزهدق

- ١٤ -

كما أشار الشاعر الحمصي نسيب عريضة إلى
شهداء السادس من أيار في قصيدته "الشعب الذي
لا يفيق" بقوله:

هتك عرض
نهب أرض
شنق بعض
لم تحرك غضبه
فلماذا نذرف الدمع جزافاً؟
ليس تحيا الخطبة.

ونقف وقفة أخيرة عند الشاعر جورج أطلس
الذي رثى مواطنه الشهيد عبد الحميد الزهراوي،
فأشار إلى دعوته إلى الوحدة الوطنية، ونبذ
التفرقة، وراح يستغرب كيف لم يهب دعاة الوحدة
العثمانية لنصرة شيخ مسلم جليل، ولم يعمدوا إلى
قطع ذلك الحبل الذي أوثقوا به عنقه:

عبد الحميد أخي، ما كنت منتظراً
أن السماء بهذا الجور تبلوننا
تبيك حمص وما تحويه من نزه
يبكيك "ميماسنا"، يبكيك "عاصينا"
يبكيك من سمعوا صوتاً جهرت به
ضد التفرق فانبث الإخا فينا
أين الألى طالما باهوا بشدتهم
وطالما احتقروا من خالف الديننا
لم لم يذودوا ولم لم يقطعوا قرناً
شد الطغاة إليه زين واديننا



لون عينيك..

شعر الدكتور: سعاد الصباح

أَيُّ نَهْرٍ فِي رُبِّي عِي —
نِيكَ يَجْرِي أَيُّ كَوْنٍ —
أَيُّ نَوْرٍ فِيهِمَا يَبْ —
دَوْلَعِي نِي فَابْهَر —
أَيُّ نَارٍ فِيهِمَا تَجْ —
عَلَّ قَلْبِي يَتَخَرَّر —
أَيُّ كَأْسٍ فِيهِمَا تَنْ —
سَابُ فِي رَوْحِي فَأَسْكَر —
أَيُّ سَهْمٍ فِيهِمَا يَجْ —
عَلَّ كَبْرِي يَتَكَسَّر —
أَيُّ لَوْنٍ يَتَجَلَّى —
فِيهِمَا اللَّهُ أَكْبَر —
أَيُّ فَكْرٍ فِيهِمَا غَا —
مَ عَلَى الْفِكْرِ وَحْيٌ —
كُلَّمَا قَاوَمْتُهُ أَلْ —
فَيْتُ خَطْوِي يَتَعَثَّر —
وَإِذَا أَزْمَعْتُ هَجَرَا —
نَكَ أَدْنَى مِنْكَ أَكْثَر





كَيْفَ آمَنْتُ بِمَنْ يَعِ
بَثَّ بِالْحُبِّ وَيَكْفُرُ
أَهْ مِنْ لَيْلِي وَمِنْ وَيْ
لِي وَمِنْ هَذَا الْمُقَدَّرِ
يَطْلُعُ الْبَدْرُ عَلَى الْأَنْدِ
جُمُ فِي اللَّيْلِ وَيَسْهَرُ
وَيُؤَالِيهِ بَنُورِ الْ
شَوْقِ حَتَّى تَبْلُورِ
أَيُّ سَحَرٍ يَجْذِبُ الْبَدِ
رَ إِلَيْهَا حَتَّى تَخْطُرِ
أُتْرَاهَا كَحَلَّتْ بِالْ
لَيْلِ جَفْنَيْهَا لِتَسْهَرِ
أَنَا مَنْ كَحَلَّنِي السُّهَرِ
دُوبَدْرِي لَيْسَ يَشْعُرُ
لِيَتَنِي فِي لَيْلِ بَدْرِي
نَجْمَةٌ فِي الْأَفْقِ تَظْهَرُ
عَلَيْهَا تَلْقَى شُعَاعًا
بَسْنَاهُ تَنْوَرُ
وَتَرَى الْحُلُمَ يَقِينًا
وَتَرَى الْعَالَمَ أَخْضَرُ
أُخْتُ رُوحِي عَنْ هَوَاهُ الْ
مُفْتَدِي لَا تَسْأَلْنِي
هُوَ حُبُّ مَالِكِهِ فِي
أَيِّ قَلْبٍ مِنْ قَرِينِ





مَا رَوَاهُ السَّدَّاهُ فِي مَا
ضِي وَلَا آتِي السِّنِينَ
هُوَ لَحْنُ شَاعِرِي الْ—
جَرَسِ خَفَاقُ الرِّينِ
هُوَ نَوْرُ يَسْكُبُ الْفَرِ
حَةَ فِي قَلْبِ الْحَزِينِ
هُوَ رَوْضُ عَاطِرِ السَّوِ
سَنِ زَاهِي الْيَاسَمِينِ
هُوَ نَيْسَانُ لِعُمَرِي
وَرِيحُ يَزْدَهِينِي
هُوَ بَدْرُ فِي دُجَى لِي—
لِي وَتَاجُ فِي جَبِينِي
فَإِذَا غَابَ حَبِيبِي
أَيُّ ظِلِّ يَحْتَوِينِي
مَنْ سِيرَ سَيِّ دُرُّ التَّالِ
جِ عَلَى هَذَا الْجَبِينِ
مَنْ سَمَحَ لَهَبِ الْحُرِ
قَةَ مِنْ دَمْعِي السَّخِينِ
مَنْ سَيَّهَدَنِي إِلَى الْمَرِ
فَإِنْ ضَلَّ سَفِينِي
مَنْ عَلَى الْأَيَّامِ دُخْرِي
وَنَصِيرِي وَمُعِينِي
مَنْ أَرَانِي حِينَ مَا أَلِ—
قَاهُ فِي حَصْنِ حَصِينِ



مارس الإنسان اللغة بشكل فطري دون محاولة لسبر غورها، أو معرفة كنهها، وكذلك مارس الترجمة بشكل تلقائي منذ القديم، ويوجد شواهد موهلة في القدم تدل على ذلك، ومع ذلك فإن دراسات الترجمة لم تتطور بشكل علمي إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

الترجمة ممارسة أزلية:

الترجمة بشقيها الشفوي والتحريري قديمة قدم الحضارات واللغات نفسها، والشواهد على قدم ممارستها ماثلة للعيان في متاحف العالم اليوم، ومنها رسائل تل العمارنة التي تعود للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهي مكتوبة باللغتين الأكادية والمصرية القديمة، وحجر رشيد الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد كتبت عليه ترجمات باللغات الهيروغليفية واليونانية والديموطية المصرية القديمة، وقد ورد أن الشعب المصري كان مقسما إلى سبع فئات، ومنها فئة المترجمين، والشاهد على ذلك آلاف البرديات المترجمة من الهيروغليفية إلى اليونانية القديمة، وهي معروضة في المتحف البريطاني وغيره من متاحف العالم اليوم، ويؤكد هذا دور وأهمية الترجمة لحضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة، كما يؤكد تبادل المعارف والخبرات والثقافات بين هذه الحضارات.

وقد ذكر د. محمد العيد اللطيف في كتابه (الترجمة رؤية في الواقع العربي) أن (ميلان ديميتش) يذكر أن ربع الألواح تقريبا التي وجدت في مكتبة نينوى الملكية، كانت على هيئة قواميس وكتب قواعد للغات السومرية والبابلية، والآشورية، مما يؤكد على أهمية الترجمة في ذلك الوقت لتلك الحضارات، ويؤكد (ميلان) أن معظم الثقافات العالمية مارست الترجمة لمسببات ثقافية أو تجارية أو حربية.

كما عرفت الترجمة عند كثير من الأمم الأخرى، مثل الصين واليابان، فقد كان يوجد في بلاط الحكومة الصينية في القرن الحادي عشر الميلادي وظيفة رسمية للمترجم الفوري، كما كان المترجمون يخضعون لتدريب قبل استلامهم لوظيفتهم وقد يمد أحيانا إلى سبع سنوات.

الترجمة أداة التبادل الثقافي والعلمي بين الأمم

بقلم:

محمد عيد الخربوطلي

مدارس الترجمة عند العرب والمسلمين:

يؤكد الباحثون والمؤرخون أن الترجمة عند العرب والمسلمين قد مرت بمرحلتين، مرحلة البداية وكانت في العصر الأموي، ومرحلة النضج والتوسع وكانت في العصر العباسي، ففي البداية تشير المصادر إلى أن خالد بن يزيد الأموي كان متجهًا نحو العلم، فدرس الكيمياء على مريانوس الاسكندراني، وأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونان وطلب منهم ترجمة كتب الكيمياء إلى العربية، وقد أتقن خالد الكيمياء والطب والفقه والأدب والشعر، وترك عدة رسائل من تأليفه في هذه العلوم، وفي أيام عبد الملك بن مروان تم ترجمة دواوين الدولة إلى العربية، وفي عهد عمر بن عبد العزيز ترجم ماسرجويه رسالة أهرن في الطب، وكانت الترجمة في هذه المرحلة فردية، واقتصرت على بعض الكتب ذات المنفعة المباشرة، ولم تتدخل الدولة بعد في هذه الشؤون.

هذه المرحلة لم يذكرها د. العبد اللطيف في دراسته، إنما بدأ مباشرة ببيت الحكمة الذي أنشأه هارون الرشيد، ولكن زيادة في الإيضاح أذكر مدارس الترجمة التي كانت موجودة قبل الإسلام والتي استمر بعضها بالترجمة والتعليم، إلى ما بعد الإسلام، فقد تعلم في بعضها بعض العرب في العصر الجاهلي، فالحارث بن كلدة وابنه النضر قد تعلموا الطب في مدرسة جند يسابور الفارسية، وعرف الشرق مدارس الترجمة منذ أيام الإسكندر المقدوني خاصة في سورية ومصر والعراق وفارس، فمدرسة الإسكندرية قصدها الفلاسفة والعلماء والأطباء، ولما جاء البطالسة أسسوا فيها المدارس والمكتبة الضخمة، وقد تتلمذ فيها كثير من الفلاسفة والمفكرين أمثال بطليموس وإقليدس وأرخميدس، وعن طريقها تعرف العرب فيما بعد إلى فلسفة اليونان كما أخذوا عنها الفلسفة الإشراقية، أما مدرسة الرها شمالي العراق، فقد نقل أساتذتها بعض كتب أرسطو من اليونانية إلى السريانية، ومدرسة نصيبين التي استمرت مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي، وبفضلها انتشرت الثقافة اليونانية في بلاد فارس، وأما مدرسة جنديسابور التي تحولت في عهد كسرى أنو شروان إلى مدرسة للطب والفلسفة، كان التدريس فيها باللغة السريانية وقد بقيت مزدهرة حتى العصر العباسي، ومدرسة قنسرين التي كانت

على شاطئ الفرات تجاه جرابلس ازدهرت حتى أواخر القرن السابع الميلادي، وتعد من أهم المراكز الثقافية التي درست الثقافة اليونانية، كما تم فيها ترجمة الآثار اليونانية إلى السريانية، كذلك مدرسة أنطاكية التي ترجمت الثقافة الأفلاطونية إلى السريانية كما اشتهرت بمكتبتها الكبيرة.

في هذه المدارس قام السريان بنقل الثقافة اليونانية إلى السريانية وحفظوها، ولما فتح العرب بلاد الفرس والروم، تطلعوا إلى العلوم فاستعانوا بالسريان لترجموا إما عن اليونانية إلى العربية مباشرة، وإما من اليونانية إلى السريانية، ومنها إلى العربية، وذلك لما تمتع به السريان من ثقافة يونانية واسعة وبفضل إتقانهم للغات الثلاث السريانية واليونانية والعربية.

وبعد أن أنشأ الرشيد بيت الحكمة والذي شهد رعاية عالية ودعمًا كبيراً في عهد المأمون، صار مدرسة تعنى بالبحث والتأليف والترجمة، ويذكر التاريخ أن المأمون كان يرسل مبعوثيه الذين يثق بهم إلى بلدان الشرق الأوسط لكي يبحثوا عن المخطوطات اليونانية القديمة، ويذكر أنه أرسل وفداً إلى الإمبراطور البيزنطي ليون الخامس لكي يطلب منه بعض المخطوطات اليونانية، وقد جاء الوفد من القسطنطينية بكتب كثيرة تشمل مختلف العلوم، مما دفع المأمون أن يطلب ترجمتها فوراً إلى العربية، وتذكر بعض المصادر أن مكتبة بيت الحكمة جمعت في عهد المأمون مليون مخطوطة، وقد تابع من جاء بعده دعمه لبيت الحكمة، حتى صارت المكتبة تجمع كنزاً هائلاً، لكنها انتهت حيث أحرقت على يد التتار بعد ذلك.

وذكر د. العيد اللطيف في دراسته أن كثيراً من كتب المنطق والفلسفة اليونانية قد ترجمت إلى السريانية ثم إلى العربية، وكان المترجمون في ذلك العصر معظمهم من النساطرة المسيحيين الشاميين، ثم يقول: "وعرفت مدرسة ثانية للترجمة كانت قد أدت دوراً رائداً في الترجمة، وهي مدرسة طليطلة للترجمة، والتي تأسست في القرن الثاني عشر الميلادي، والتي تدرب فيها كثير من الأسبان والأوربيين، كما تدرب فيها اليهود والمسيحيون إلى جانب المسلمين، وأمها الدارسون من الألمان والإنكليز، فدرسوا فيها وترجموا من العربية إلى اللاتينية، وإلى اليوم يوجد في مكتبات طليطلة

مخطوطات مترجمة من العربية، ومن بينها ترجمات لشروح ابن رشد لفلسفة أفلاطون، وكتب لابن سينا في الطب، والحسن بن الهيثم في البصريات، ومئات المخطوطات العربية التي لم تحقق ولم تطبع حتى اليوم، وكما حفظ العرب (كما يقال) تراث اليونان، حفظ الأوروبيون تراث العرب.

إشكاليات في الترجمة:

ثم تحدث د. العبد اللطيف عن ثلاثة إشكاليات في الترجمة، وأكد أن العرب والمسلمين أدركوا في عهد مبكر صعوبة وتعقيد الترجمة، فقد كان الجاحظ والسيرافي وأمثالهما يهزؤون بمن يترجم حرفياً مثل يوضا البطريق وابن الناعمة الحمصي وحتى بن يونس وممن جاءت ترجمته مثل ترجمتهم، فقد التزم هؤلاء بحرفية النص اليوناني عندما ترجموا أرسطو، وكل هذا دفع حنين بن اسحق لتحديد الأسلوب الأمثل للترجمة، وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقه من حيث المعنى، سواء ساوت الألفاظ أم خالفها، أي أنه اعتمد في ترجمته على المحتوى دون الشكل، بعد أن فطن إلى صعوبة فهم التراجم التي تنتهج الأسلوب الحرفي.

وقد أكد الجاحظ في كتاب الحيوان أنه لا بد للترجمان من أن يكون في الترجمة نفسها، وفي وزن علمه في المعرفة نفسها، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواءً وغاية، وحتى تكلم بلسانيين علماً أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعرض عليه، وقال أيضاً: "إن الشر لا يستطيع ترجمته".

وكلام الجاحظ هذا ينطوي على ملاحظة عميقة حول الترجمة عموماً، وترجمة الشعر خصوصاً، وهي محل جدل حتى هذه الأيام.

وقد شبه (جومن درايدن) الترجمة في القرن الثامن عشر بالرقص على حبال بأرجل موثقة، وذلك كناية عن صعوبتها وتأرجح المترجم ضرورة بين إحدى اللغتين، وكأن درايدن قرأ الجاحظ وأيده، أما (إيان ريتشارد) فقد وصف الترجمة في بداية خمسينيات القرن العشرين بأنها أكثر أنواع الممارسات التي أقدم الإنسان عليها تعقيداً منذ بدء الخليقة، وقد فهم كلامه هذا في ذلك الوقت على أنه

نوع من المبالغة، غير أن كثيراً من الباحثين ازدادوا قناعة بهذه المبالغة الدالة بعد تطور الدراسات الفلسفية حول المعنى في الفلسفة، والمعنى في اللغة، وحول إمكانية الترادف اللفظي التام من عدمها، وحول قابلية اللغات للترجمة أصلها، وهو ما يسمى أحياناً امتناع الترجمة، فهناك فلاسفة للغة يرون استحالة الترجمة مثل (فالرا رد كواين) وهيدغر (ولدفيق) في آخر أيامه، ولكل منهم أسابه الفلسفية الخاصة.

على أن (إيان ريتشارد) قد وضع إصبعه على المعضلة الأساس للترجمة، وهي قضية المعنى اللغوي، وألف مع (تشارلز أوفدين) كتاباً من أهم الكتب في هذا المجال وعنوانه (معنى المعنى) عرضاً فيه اثني عشر تعريفاً للفظ (معنى) برهناً فيه على استحالة معرفة ما تدل عليه هذه اللفظة بشكل دقيق.

وهنا يقول د. العبد اللطيف في كتابه الترجمة ولو عدنا لما قاله اسحق بن حنين من أنه يحصل معنى الجملة في ذهنه، وحاولنا أن نعرف معنى لفظ (معنى الجملة) لأدركنا ما قصده (إيان ريتشارد) أنفاً، فما عقله اسحق بن حنين هو ماهية مازالت عصية على التحديد والتعريف بشكل دقيق، ومازالت قضية تحديد المعنى تؤرق الباحثين في مجال الترجمة.

أما الإشكالية الثانية التي تعرض لها الباحث ارتباط العقل والتفكير باللغة، فيستحيل كما يرى (فيتقنشتاين) أن نصف قضية تنطبق عليها عبارة ما في اللغة دون تكرار العبارة ذاتها، أما (إدموند هوسرل) فيرى أننا نستطيع بطريق الإدراك المباشر معرفة الشيء وتصوره، لأنه يمكن تصور ذلك الشيء بشكل صوري (فوتوغرافي) ولكن لا يمكن الاحتفاظ بصورته طويلاً، واسترجاعه في العقل، وإعادة تصوره وحتى يمكننا الكلام عنه، أي حتى يأخذ شكلها لغوياً، وهو ما دلل به (هوسرل) على أسبقية الإدراك على اللغة، ويصل د. العبد اللطيف إلى نتيجة حول هذه الإشكالية، وهي أنه في كل الأحوال ولمحدودية ذاكرتنا الفوتوغرافية، وصعوبة الاحتفاظ بجميع الصور لكل المواقف والحقائق، فنحن نجد أنفسنا أمام الصور اللغوية فقط، وعليه يمكن القول أن اللغات خصوصية إدراكية تخزنها لغاتنا، ويقول:

"إن عدداً من الباحثين في مجال علم النفس المعرفي يرون ارتباطاً وثيقاً بين التفكير واللغة من

حيث أن اللغة فقط هي التي تمثل أمام العقل وتدخل في جميع عملياته، وهي أيضاً تحوي المخزون الأساسي للثقافة المتراكمة والمتوارثة عبر الأجيال، فاللغة هي أداة التفكير التي يستحيل حصولها من دونها، وهذا ما دفع بعض الباحثين للربط بشكل جدلي بين القدرة اللغوية للفرد وقدرته على التفكير.

ثم يعرض د. العبد اللطيف في درساته الإشكالية الثالثة للترجمة وهي ارتباطها بالثقافة، فيقول أبرزت هذه الإشكالية دراسات الإناسة، وخاصة دراسات الإناسة الاجتماعية، والإناسة اللسانية، ويؤكد أن هذه المعضلة برزت من طرفين في هذا المجال، أولهما علم الإناسة الوظيفي على يد باحثين مثل (أماواس ومالونسكس وفيرث) حيث احتج هؤلاء على الدراسات التقليدية في مجال الإنارة في أوربا (إداورد تيلور وجيمس فريزر) التي تعتمد على ترجمة عبارات الثقافات المدروسة عبر مترجمين ووسطاء إلى لغات الباحثين الأوروبيين الذين لم يحتكموا بهذه الثقافات ولا يعرفون لغاتها، ثم اعتماد الترجمات بشكل تلقائي في دراساتهم، وفي إطلاق الأحكام على هذه الثقافات انطلاقاً من ثقافة الدارسين دونما اعتبار للسياقات الثقافية والوظيفية للغات الشعوب المدروسة، أو لوظائف اللغة الاجتماعية، فكل لغة حسب رأيهم وظائف اجتماعية ونظم خاصة لا يمكن سحب المعايير الأوروبية عليها.

أما المجال الثاني فقد تمثل في تطور الدراسات الثقافية البنيوية التي أكدت على اعتبارية علاقة الدال بالمدلول في العلاقة الرمزية اللغوية، فقد نظر هؤلاء للغة على أنها كيان وسيط بين العالم الخارجي والإدراك الداخلي لهذا العالم في الثقافة أي أن الثقافة ليست إلا نموذجاً كما يبدو لأبنائها أنه حقيقة العالم الخارجي نموذجاً يتضمن مجموعة التصورات والإفتراسات الجمعية التي يتشربها أفراد الشفافة ويوارثونها، ويمكن بشكل مجازي النظر إلى اللغة على أنها في مجملها (دال) والثقافة برمتها على أنها (مدلول) في مفهوم (سوير) للعلاقة بين الدال والمدلول، والتي هي علاقة تلازم اعتبارية، ولذلك أكد بعض الباحثين مثل (إداورد سابير وبينجامين وورق) في فرضيتهم التي عرفت باسمها أحياناً، وبالحمية اللغوية أحياناً أخرى، على استحالة الترجمة من ثقافة لأخرى، لأن اللغة هي التي تحكم نظرتنا للعالم، ونحن لا نستطيع رؤية العالم إلا من

خلالها، ولكل لغة رؤية خاصة للعالم تحكم المتكلمين بها، وحسب نظرية (سابير - وورف) فنحن محكومون، أو بالأحرى منغلَقون داخل إطارنا اللغوي، والثقافات المختلفة ليست صور مختلفة عن عالم واحد، بل هي في ذاتها عوالم مختلفة، أي أننا صوراً في عوالم مختلفة متباعدة تباعد لغاتنا.

ويتساءل د. العبد اللطيف في نهاية بحثه عن إشكاليات الترجمة عدة تساؤلات فيقول، إن ما سبق يطرح أكثر من تساؤل لدارسي الترجمة، فهل تتوقف الترجمة على اللغة فقط، أم تتجاوزها للثقافة ككل؟ ثم هل يمكن النظر للنصوص المترجمة على أنها نصوص ذات كيان مستقل يحمل المضمون ذاته في الثقافات المختلفة...؟؟ أهى جزء من واقع مشترك لجميع اللغات، أم هي تتبع لثقافات خاصة يصعب فصلها عنها، وقد يتغير مضمونها حسب السياقات الثقافية المختلفة؟

ثم يقرر أن معظم وجهات النظر حول الترجمة التي تنطلق من الدراسات الثقافية والأدبية، والمقارنة، تؤكد على الخصوصية الثقافية للنصوص، وعلى علاقة النصوص المترجمة بالثقافة بمجملها، بينما تميل بعض الدراسات اللسانية إلى حصرها بقدر الإمكان في النظم اللغوية، ولذلك ينظر للدراسات اللسانية في مجال الترجمة على أنها دراسات اختزالية في مجملها، تختزل النصوص إلى مجرد كيانات لغوية متباعدة، وتركز على التركيب اللغوي أكثر من السياق.

ويؤكد أن عدم ظهور نظرية متكاملة للترجمة بشكل عام يعود لعدم وجود نظرية متكاملة للغة، أو المعنى اللغوي، ولذلك تعددت وجهات النظر في الترجمة بتعدد النظريات والآراء اللغوية، وبتعدد وجهات النظر الفلسفية والثقافية، وبتعدد المجالات التي تأخذ الترجمة ضمن اهتماماتها.

وأخيراً إن الترجمة تعد أداة التبادل الثقافي والعلمي بين الأمم، مارستها الشعوب بشكل تلقائي منذ زمن قديم، وحديثاً تعد الترجمة ممارسة ونظرية على أنها جزء لا يتجزأ من الواقع الثقافي للأمم تخضع للعوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية التي تمر بها المجتمعات، والعالم العربي ينظر للترجمة على أنها جزء من الحراك الثقافي العام للأمم العربية، لكن ما هو حال الترجمة اليوم في العالم العربي؟ هذا السؤال له دراسة خاصة..!

أديبة وناقدة متميزة وباحثة وأول أستاذة
في جامعة دمشق ورائدة في دراساتها
ومؤلفاتها القيمة لشعراء المهجر الجنوبي.

ولدت في دمشق عام ١٩٢٩ ونشأت في
بيت علم وفضل وثقافة. تلقت دراساتها
الابتدائية والثانوية في مدارس دمشق وكانت
معلمتها الأدبية ثريا الحافظ في الصفين الثالث
والرابع الابتدائي.

بعد حصولها على الشهادة الثانوية
انتسبت إلى دار المعلمات بدمشق لدراسة
التربية وأصول التدريس لمدة سنتين، ثم
انتسبت إلى جامعة دمشق كلية الآداب قسم
اللغة العربية ونالت الليسانس في الآداب عام
١٩٥١.

مارست التدريس في ثانويات البنات
الرسمية عدة سنوات ثم سافرت إلى مصر
والتحقت بجامعة القاهرة وحصلت على شهادة
الماجستير عام ١٩٦٤ بامتياز وكان موضوع
رسالتها (القومية والإنسانية في أدب المهجر
الجنوبي).

أوفدت ثانية إلى القاهرة ونالت درجة
الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٦،
وكان موضوع أطروحتها (الشعر القصصي)
وقالت الدكتورة سهير القلماوي وهي تناقش
رسالتها: "لئن دل البحث على عقل ناضج
وخلق علمي إنما يدل في الوقت نفسه على ما
تمتاز به الباحثة عزيزة من خلق ممتاز".

عادت إلى دمشق وقدمت أوراقها وبحوثها
لتلتحق بالهيئة التدريسية في جامعة دمشق
وكان آنذاك الدكتور عبد الكريم الأشتري رئيساً
لقسم اللغة العربية وكان له الفضل في تعيينها
للتدريس بالجامعة، وكان هذا أول قرار وقّعه
الدكتور الأشتري.

الأديبة

الدكتورة

عزيزة مريدن

١٩٩٢ – ١٩٢٩

بقلم:

يوسف عبد الأحد

لتسمية قاعة من قاعات كلية الآداب باسم
الدكتورة عزيزة مريدن كونها أول عضو هيئة
تدريسية في جامعة دمشق. وقّع القرار أمين
فرع جامعة دمشق للحزب الدكتور محمد
فاروق أبو الشامات.

قالوا في رحيلها

* الدكتور شاكِر الفحام:

"لقد رسمت لنفسها قيماً عملت بها، لقد
سحرتها العربية ببيانها وفصاحتها، كما أنها
اختارت موضوعاً لدراساتها العليا (القومية
والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي) واختارت
أجمل الأشعار لهذا الموضوع وعبرت من خلال
دراساتها عن التزامها بوطنها الحبيب.. كما
استجابت لكل ما يوجبه المنهج العلمي للوصول
إلى الحقيقة.."

* الدكتور عمر موسى باشا:

"كان المرأة الأولى التي دخلت الجامعة
كلها كأستاذة جامعية، وقد ساهمت في بناء
النهضة الفكرية على صعد مختلفة مع أقرانها
كالأستاذ الدكتور شكري فيصل وشفيق جبري
وأحمد راتب النفاخ."

* الدكتور إسماعيل الكفري:

"عرفت الدكتورة عزيزة مريدن طالباً
وزميلاً، عرفت طالباً فوجدت فيها اللفظ
الشهي ونصاعة البيان والأسلوب الجميل النقي
البعيد عن كل أشكال التكلف والغموض
والاضطراب متمكنة من عملها. وعرفت زميلة
فرايت فيها حكمة النابه الذي عرك الحياة
واختبرها."

وكانت أول أستاذة في جامعة دمشق في
كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٦٨
وبعد سنتين عيّنت أستاذاً مساعداً في الكلية
نفسها حتى عام ١٩٧٣.

سافرت إلى المغرب للتدريس في جامعة
الملك محمد الخامس في الرباط لمدة ثلاث
سنوات ١٩٧٣ - ١٩٧٦، بعدها عادت إلى
وظيفتها في كلية الآداب بدمشق.

وفي عام ١٩٨٠ أُعيرت إلى المملكة
العربية السعودية وعملت في كلية البنات بجدة
وأشرفت خلال إقامتها على عدة رسائل
ماجستير للطالبات وفي الوقت نفسه كانت
تشرف على رسائل الماجستير لطلابها بدمشق
بالمراسلة.

عادت إلى دمشق وتابعت التدريس
والتأليف والبحث. قال الدكتور عبد الكريم
الأشتر في مقاله المنشور في جريدة البعث
بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٩٣ العدد ٩٠٤٩:

"كنت أتبع نتائجها ونشاطها وعرفت أنها
سافرت مع أخيها إلى أميركا ومنحته إحدى
كلياتها ولكنها كانت تعد ذلك من أسرارها
الخاصة."

في أيامها الأخيرة ساءت صحتها حتى
وافتها المنية في ٢٥ / ٧ / ١٩٩٢.

أقامت لها كلية الآداب في جامعة دمشق
حفلاً تأبينياً في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد
بتاريخ ١٩ أيلول ١٩٩٢، شارك فيه كل من
الدكتور شاكِر الفحام والدكتور عمر موسى
باشا والدكتور إسماعيل الكفري والدكتورة
أحلام الزعيم والدكتور عزة مريدن الذي ألقى
كلمة آل الفقيدة.

وصدر قرار قيادة فرع جامعة دمشق
للحزب رقم ٢٩١ / وتاريخ ٢٢ / ١٠ / ١٩٩٢

* الدكتور عبد الكريم الأشر:

"سيأتي يوم تذكر فيه عزيزة مريدن الأدبية صاحبة الأسلوب الحي المشرق والمرأة التي اخترقت جدار السكون والأستاذة التي علمت أجيالاً من الناس".

* الدكتور خليل موسى:

"أما مسيرة عملها التدريسي فقد شهد لها الجميع بالإخلاص والتفاني في سبيل تقديم أفضل ما لديها للطلاب، فكانت صاحبة سيرة عطرة وفاضلة بين زملائها وطلابها".

* الأديب عيسى فتوح:

"لقد اهتمت الدكتورة عزيزة بشعر المهجر الجنوبي لأنه ناصع البيان شديد المحافظة على تقاليد اللغة العربية، كثير الاهتمام بالعروبة والقومية وقد بدأ اهتمامها به حين وقع في يدها ديوان رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)".

* الأدبية قمر كيلاني:

"كانت تنشد الكمال في دراستها وكانت بالنسبة لنا نحن الجيل الثالث نموذجاً نادراً للمرأة المثقفة ليس أكاديمياً وإنما الثقافة المعرفية والأدبية والتراثية والاحترام البالغ للغة العربية".

* الأدبية ثريا الحافظ:

"عرفت فيها منذ طفولتها سعة الحافظة وحدة الذكاء، فقد كانت تلميذة نجبية درست في الصفين الثالث والرابع الابتدائي وفتت نظري بما تملكه من جدية وبلاغة لسان وحسن تفهم، لكل ما يلقي على مسامعها وبصورة خاصة اللغة العربية".

* وقالت تلميذتها الأدبية وفاء مارديني:

"كلمة حق اقتضاها الوفاء أخطأها فيك.. أنت علمتني وأقراني معنى الجد والمتابعة.. ومعنى أن يتطلع الإنسان إلى ذرى الطموح لتصنع له المكانة. وإلى الصدق والوفاء لتصنع له احترام الذات..".

* الدكتور محمد أحمد المجالي:

"يعد كتابها (القصة الشعرية في العصر الحديث) نموذجاً متقدماً للنقد التحليلي الأصيل. وقد انصرفت الناقدة في دراستها إلى العناية بالخصائص الفنية لكل نوع من قصصها فضلاً عن النواحي التحليلية والدراسة النقدية التي اتبعتها في كل قصة".

مؤلفاتها المطبوعة

- ١- القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي - القاهرة ١٩٦٦.
- ٢- الشعر القومي في المهجر الجنوبي - دار الفكر - دمشق ١٩٧٣.
- ٣- من الشعر العربي المعاصر - دراسة - دار الفكر - دمشق ١٩٧٣.
- ٤- القصة والرواية - دار الفكر - دمشق ١٩٨٠.
- ٥- حركات الشعر العربي في العصر الحديث - جامعة دمشق ١٩٨٩.
- ٦- توفيق الحكيم آراؤه في النقد والأدب.
- ٧- القصة الشعرية في العصر الحديث.
- ٨- المسرحية بين القومية والمحلية.



هيام..

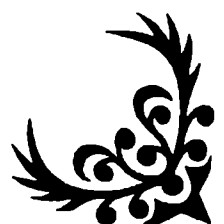


بقلم: مدحة عكاش

أَيُّ نَعْمَى فِي حَبْنَا الْأَبْدَى
أَبْعَدْتُنَا عَنِ الزَّمَانِ الشَّقِي
يَا حَبِيبِي!! أَنَا وَأَنْتَ غَرِيبَانِ
قَصَيَانِ مِمَّنْ مَكَانٍ قَصِي
لَا تَرَانَا الْعَيَّوْنَ، نَحْنُ طَيِّفُونَ
مِمَّنْ خِيَالٍ، وَمِمَّنْ ضَمِيرٍ خَفِي
مِمَّنْ ضَمِيرِ الزَّمَانِ نَحْنُ أَتَيْنَا
وَهَوَانَا مِمَّنْ عَالَمٍ عَلَوِي
مَا خَطَرْنَا يَوْمًا بِخَاطِرِ رَسَامِ
مِفْنٍ، أَوْ شَاعِرٍ عَبْقَرِي

* * *

يَا حَبِيبِي مِمَّنْ سِحْرٍ دَلَّكَ أَطْلَقْتُ
جَنَاحِي فِي خِيَالٍ نَقِي
وَبَعَثْتُ الْأَشْعَارَ تَزْهَوُ عَلَى الدُّنْيَا
بِذِكْرَاكَ، فِي إِهْسَابِ سَنِي
وَأَرْتَنِي الْحَيَاةَ عَيْنَاكَ فَرْدُوسًا
نَدِيًّا قِي ظِلُّ عَيْشٍ نَدِي
لَكَ يَا مُلْهِمِي بِقَلْبِي أَحْلَى
مَا يَكُنُ الْوَقِي نَحْوُ الْوَقِي



قال أبو نؤاس:

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفاً ما ضر لو كان جلس
اترك الربيع وسلمى جانباً
واصطبج كرخية مثل القبس

ويقول صفي الدين الحلي:

تنقل فلذات الهوى في التنقل
ورد كل صاف لا تقف عند منهل
ففي الأرض أحباب وفيها منازل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

يدعو أبو نؤاس إلى التجديد في
الأسلوب الشعري والتخلص من البكاء على
الأطلال كما يدعو الحلي إلى عدم التحجر
والتحيز لمقولة واحدة ويحثنا على التحديث
بورود مناهل الحياة بالمعرفة الصافية
والمتنوعة العديدة.

إن الحياة نهر يجرف ولهب يضيء
والإنسان لا يستحم في النهر مرتين كما يقول
هيرقليط والحدثة تدمر القوالب الجامدة التي
تعيق ظهور وتطور المفاهيم الجديدة.

إنها إعادة نظر مستمرة ليس فقط في
الجزئيات بل في جوانب أساسية واستعداد دائم
لتغيير أي مفهوم كان ونزع التقديس
والأسطورة. لا شيء مقدس بالنسبة لها ولا
شيء محرم. كل شيء مباح للمعرفة والعلم من
تحليل واقتحام مجالات الإنسان والطبيعة
والدين.

كل الحضارات كان لها محرماتها،
والتاريخ المعلوم يؤكد نسخ مفاهيم ونظريات
ومعتقدات كان يؤخذ بها على أنها خالدة أبدية.
إذ أن هذه المفاهيم والنظريات والمعتقدات

السلفية

و

الحدثة

بقلم:

جوزفين إلياس كوزاك

ليست يقيناً بل لحظة غبطة ورضا ومخرج حيلة؛ بنت واقعها مكانياً وزمانياً وتتغير من آن إلى آخر أو بالأحرى تتطور بالتنقيح والتصحيح فإذا لم ينتسب الكائن إلى القيم الجديدة فسيظل قيد الأحلام يضوي في المسرات المستحيلة في عالم ضائع متوهم. إن القيم أصلاً يخلقها الإنسان أو يكتشفها أو يصححها من أجل تعزيز التقدم الإنساني وتطوير الشخصية الإنسانية.

هناك الكثير من (ربما) فيهما نقوله ونؤمن به لذا يقلب العلم أوضاعاً مألوفة ويهدم أسوارها ولن يقف عن التطور فهو سيرورة تاريخية وسيبقى في سيرورة دائمة.

لا توجد معرفة شاملة ولا يدعي العلم إعطاء اليقينات بل يترك المجال حراً لحوار لا ينتهي بين المادية والمثالية بين الكينونة والسيرورة؛ وهناك سبل كثيرة للتقدم في هذا الحوار ويجدر بنا استخدام الخطط النقدية والتحرر الفكري، فلا نتحيز لمدرسة التحيز الأعمى. إن العلم تحرر وحرية لي كما للآخرين يفرض نفسه دونما حاجة لخلق الخصم أو النصير. لكل نظرية سياق تاريخي، وما من نظرية تعتبر نهائية وصحيحة كلياً كما أنه ليس من نظرية باطلة كلياً ما دامت قد وسمت عصرها.

إن النظريات كالمفاتيح تصنع من أجل أقفال معينة فنظرية تصلح لوقت بينما تصلح الأخرى لوقت آخر. إن الصراع موجود بين الأساليب يدعم العلم ويغييه؛ وقديماً قيل: الحرب أبو الأشياء.

لا حدود للفكر النقدي ولا حدود للعقلانية ولا نهاية لعملية العقلنة والثقافة تنمو وتعمل على تغيير الذات والعالم؛ وخيار الإنسان هو خيار التحديث والحدثة والاندماج في التاريخ بمعناه السيروري لا بمعناه السكوني الماضي المبتسر، حيث يبقى أسير مراحل

سابقة لم يستطع تجاوزها أو حسن التعامل معها.

إن الحدثة بمعنى ما هي حب المرء لعصره واحتفاله بمستجداته على عكس من يتغنى بعظمة الماضي والأسلاف. كل القرون هي القرن الحاضر، وللزمن اتجاه أحادي لا يمكن قلبه أو إرجاعه إلى الوراء، يتقدم باستمرار يحدث البدعة والتطور ينشر البدع على الرغم من المواقف المحافظة المتحجرة التي تخشى جدّة السيرورة وكثيراً ما تعتبرها رجساً.

إن المبالغة في التمسك بالقديم تؤدي إلى إضفاء هالة من القدسية على الموروث بحيث لا تجوز معارضته أو إثارة الشكوك حوله؛ وهذه حالة اغتراب يعيشها الحاضر بعقلية الماضي ويلغي التساؤل بغير المؤلف ويحرم الاقتراب من عالم المكبوتات الذي يصفه محمد أركون بالمستحيل التفكير فيه والممنوع، التفكير فيه واللا مفكر فيه.

يستدعي الانطلاق من القدسي إلى التاريخي والحاجة لصياغة جديدة، روحاً وأفكاراً تتجاوز بحيويتها الأفكار التقليدية المتخثرة المكررة.

إن السلف المصنم والد العقيم يوقف حركة التاريخ، يمنع نفسه وغيره من العبور إلى الدرب الذي يليه، إلى النقاط اللا محدودة التي تملأ فراغات هائلة بين الماضي والحاضر ويستعيز بظله عن الطريق الممتد أمامه وليس للظل كيان. إنه يحور الواقع بدلاً من تغييره ويؤثر التسليم على التصميم، والخلف المصنم لا يغني ببحث المسائل المطروحة بل يبقى حبيس زنانات المسلم به ودراسة المشكلات المزيفة المتعلقة بالتعاليم المدرسية الأسكولاستيكية الدوغمائية. إنه سجين جديد

للكهف الأفلاطوني، محتاج إلى العتق والاختمار.

إذا لم يساعل الواقع أو يعاد خلقه فإنه يتحول للركود والسكون ويقع في شرك ثقافة التخلف وتخلف الثقافة، إن الحداثة تمرّد ضد الواقع وضد جموده وسكونيته بالتوصّل إلى مفاهيم أخرى للاستمرار، للحركة بكل مجالاتها. إن التغني بالسلف يتيح تدبّيج مواقف حماسية عاطفية خالية من الروح العلمية، والغنائيات وإن كانت عنصراً جمالياً يثير الغراء من الغناء إلا أن الركون إليه والاكتفاء به يعني كما أسلفت التمرّكز على الذات والتغاضي عمّا حولنا من وقائع ومشاكل تتطلب الحلول وتساؤلات تنتظر الأجوبة المقنعة الشافية لا الغيبية وتعليق الأمور على شماعة القدر. مسكين هذا القدر كم نحمله من تبعات تصرفاتنا ومسؤولياتنا.

إن السلفية تركز إلى الماورائيات وتلجأ إلى الغنائيات وهذه وتلك لا تغني عن البحوث العلمية الموضوعية والفكر النقدي الشامل. فالماورائيات معناها في لفظها، ونصح سقراط بإيثار الماقبلات أي الأرضيات ونقل الفلسفة من السماء إلى الأرض، مثله مثل الفيلسوف (كانط) صاحب كتاب (نقد العقل الخالص) إذ أنه يرى أن الخوض في الميتافيزيك لا يجدي ولا يغني فهو موضوع غيبي لا يستطيع الإنسان له نفيًا أو إثباتًا. وأجدر به الالتفات لواقعه المادي والمعنوي.

لقد أدى الفكر السلفي بما يحمله من فلسفات وأفكار ونشاطات مهمته ووسم عصره بل ودخل كل ما فيه من خير ومعرفة مفيدة ونظرات حياتية وجمالية إلى صلب وبنية عصر النهضة من خلال الصراع والنزاع بما في ذلك القهر والبطش والمحاكمات حتى الاستشهاد.

وبحق قال البروفيسور Professor Mempo Giardinelli إن الإنسانية خلال تاريخها لم تناضل في سبيل الحرية بقدر ما قيدت هذه الحرية ويناشد قائلاً: لنترك الحرية للحرية.

صنف (أوغست كانط) تاريخ البشرية بمراحل ثلاث: الغيبية، اللاهوتية والميتافيزيقية، فالمرحلة الوضعية: مرحلة العلم والتقدم وفيها نظرة الإنسان إلى نفسه والثقة بسيطرته من خلال رفضه للسيطرة الخارجية على الفكر. فالإنسانية عند كانط هي الإله الجديد الذي يتجاوز فيه الإنسان الآلهة السابقة. الإنسانية التي تجدد ذاتها المتطورة والمتجاوزة للحدود والقيود؛ ويأتي (دوركهيم) ليعمق هذا الخط بأن يعلن أن المجتمع هو الله والله هو المجتمع (نظرية التعالي الاجتماعي) الذي حل محل التعالي الإلهي.

إن الإنسانية لم تكتمل بعد، إنها قيد الصنع، تكسر القواعد الشكلية والتقاليد المتحجرة، ما هو صحيح بالأمس ليس بالصحيح اليوم. ويناضل المبدعون من أجل تحرر ملتزم ودائم تجاه التحرر ذاته. إنه تحول حقيقي وانقطاع معرفي من الإيديولوجيا إلى العلم حتى في الكنيسة التي أخذت تجعل محورها متعددًا وتتكرر للمسار المحدد سلفًا فاتحة قلبها لمسارات محتملة متعددة وبذلك لن يكون الدين بداهة محورية خارجية بل لا نهاية لضروب التحرر الفكري.

إنه التمرد الحداثوي بتحديثه للكلية المتمحورة يرفض كل تأسيس وقيم المجاز للأنظمة الدوغمائية وللآلهة التي تجري محاكمتها (الوثنية) وللقوانين التي يتم تجاوزها.

كل حضارة كل ثقافة بما فيها من علم وفن ودين.. إلخ إنما هي مراحل تاريخية نابعة

من وتابعة لظروف اجتماعية واقتصادية تواكب السياسية الإنسانية والاكتشافات الجغرافية والكونية الفلكية (كوبرنيك) والحيوية (داروين) وحتى لا أقع في فخ سرد كاتالوج المبدعين العظام أكتفي بالقول بأن داروين عزز ثورة وسجل انتصاراً في الفكر الحديث بفصله الطبيعة عن الله وقدم كتابه (أصل الأنواع) نموذج تفكير يغير منطق المعرفة وبالتالي يغير معالجة الأخلاق والسياسة والدين حيث أصبحت تحولية نسبية تظهر وتتغير كأداة مساعدة للإنسان في صراع البقاء بعد أن كانت مطلقة ثابتة، كما هدم كوبرنيك وغاليليو النظام البطليمي الفلكي ومعه الفلسفة الأرسطية وعمرها ألفا عام.

يفرز التاريخ الجديد باستمرار وأشكال المعرفة تاريخية تسير التاريخ المتحرك بما فيها الأديان إذ أنها ظواهر تاريخية ملائمة لزمان ومكان معينين.

إن الدين الجديد يرى في الدين القديم مجرد عبادة أوثان ويستثني نفسه بتجاوزه محتوى الدين القديم ويتصور موضوعه ومحتواه يستعلمان على الإنسان مع أن هذا الموضوع وهذا المحتوى إنسانيان كلياً؛ والإيمان الأعمى متحيز غير متسامح إما معى أو ضدي وهو الذي اخترع الجحيم لا العقل. إنه مصادرة العقل.

إما أن يقع الوعي النهضوي نسبياً في دائرة السلفية فتحد من آفاقه المستقبلية وإما أن ينطلق من بداية أكثر حداثة مؤهلة لمواجهة إيديولوجية تستظل بالدين.

يخلق الإنسان السند عندما تضيق به السبل ولو لم يكن الله موجوداً لأوجدناه يقول فولتير. والله هو المطلق هو الكمال المنزه عن النقص والسلبيات الغني بذاته والغني عن الاستبداد والاستعباد، هو المثال اللا متناهي

الشامل للتسامي وتجاوز الذات يرباً بالإنسان عن الاستكانة والضعف والعبودية للاجترار والتكرار ويدعونا لنخلق ونخلق ونبدع لا أن نسكن ونركن ونتبع؛ يدعونا للسمو بأنفسنا لا طمعاً بثواب ولا خوفاً من عقاب. فثواب الفضيلة والعلم والخير والحق والجمال في تمثلها وغذ السير في دروبها، وعقاب الرذيلة والجهل والشر والقبح فيما تحمله وتخلفه. أخلاق بلا إلزام ولا جزاء.

لقد أتى الأنبياء مجددين كما العلماء، هدموا ليبنوا ونقضوا ليجددوا وكلنا يعلم تعاليم المسيح التي أتت رداً على جمود الديانة اليهودية ونقضه لتعاليمها؛ فعدا عن مقولته الشهيرة: من له عينان فلينظر ومن له أذنان فليسمع وهي دعوة جادة للتفتح والانفتاح والانطلاق من التبعية والجمود لا ننسى كلمته الناهية والرادعة للتلاعب اللفظي والركون للحرف المميت حيث قال: ليس كل من قال يا رب يا رب يدخل ملكوت السماء وعقب بولس بقوله: الروح يحيي والحرف يميت هي الحياة الخلاقة المتجددة والمجددة لكل شيء بما فيه الحرف. ولقد ناضل النبي العربي محمد في سبيل التجدد والتجديد وناصر العلم ودعا إليه بقوله: "خذوا العلم ولو في الصين" وإنما يخشى الله من عباده العلماء". لقد أشاد بالمؤمنين بالتقدم والحضارة والرقى: إيمان الإسراء والمعراج إلى عليين لا الإيمان الأعمى بالجهل والسلفية الجامدة بل ثورة على التقاليد البالية التي أخذت تعرقل المجتمع. إنها ثورة التحرر الفكري والنقد البناء. وعلى الرغم من تأثيره لا إكراه ولا قسر في الدين ودعوته للانفتاح والتواصل الإنساني القائم على الحرية والمساواة وعلى الرغم من مقولة المسيح: "دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" راح الدين يخلط بين الروحي والزمني ويدعم السلطة

والسلطان المتسلط والديكتاتوريات السياسية والدينية وأحياناً العلمية التي كانت تقف في وجه الحداثة حفاظاً على مكاسبها ومصالحها وتعتبرها معارضة هرطقة زندقة ومروقاً.

لقد صرع رجال الدين في القرون الوسطى (برنو) لأنه آمن بقواعد فلكية تكاد تكون بديهية في عصرنا. وحكم على سقراط بشرب السم لأنه يحرر فكر النشء الجديد ويعلمهم توليد الأفكار؛ كما حوكم غاليليو لنظريته بدوران الأرض وقائمة شهداء التجديد والحداثة طويلة شملت الأنبياء والرسل أيضاً.

تعتقد الحداثة بخيانة المؤسسات الدينية فأخذت تبحث عن تعاليم جديدة تعاليم العقلنة والعقلانية والتقدم البشري وراح تقديس جديد يتبلور محل التقديس القديم ليصبح الدين مسألة شخصية ولم يعد الإيمان وراثياً أو إجبارياً بل أصبح نابعاً من الذات. ومع ذلك فالحداثة لا تعني الإلحاد وإنما تعني حرية الاختيار؛ لقد تحولت العلاقة مع الدين من علاقة سلبية تبعية إلى علاقة نقدية واعية. فالدين الإنساني هو الواعي ذاته والذي يقيم صرح نقد الفلسفة الإنسانية على قاعدة نقد الفلسفة الثيولوجية. أخذت الحياة تتحرر من أسر الكهنوت.

يقول بودلير: "الحداثة هي التحرر من الخطيئة الأصلية ومحوها" أي تدمير النماذج النمطية والاعتناق من القبلية وإطلاق الغنان لاختراق مجاهل المحرمات وفك قيود التابو وبالانتقال من الشهادة إلى الاتهام بتساؤلات إحيائية منتجة. فبقراءة واعية مستنيرة نبيرئ حواء من تخطئتها فلقد أطعمت وطعمت من شجرة المعرفة تطلعاً إلى الأفضل ونشدانا للسعادة. قد تقولون أي سعادة بعد الفردوس وهي تجيب: سعادة المعرفة في كشف مجاهيل الطبيعة والإنسان اللا متناهية والقضاء على ظلمة الجهل.

يقول الدكتور ناصيف نصار: "إن شقاء الأحرار في معاناة الإبداع أحب من سعادة العبيد في الجنة" إنها لم تعص الله بل أحبته لأنه خلقها وآدم على مثاله فلماذا لا تتمثل صفاته من علم وقدره وخلق فتحقق ما تصبو إليه من ألوهية أرادها الله لها. وليست دليلاً بخائنة فلقد ضحت بنفسها في سبيل نصره شعبها وقومها. إنها الفتاة المخلصة والفدائية الفلسطينية.

تمثل تجربة الغرب منذ عصر النهضة جهداً متواصلاً لتحرير العقل من هيمنة النصوص الثيولوجية وتأسيس معرفة إيجابية تجريبية؛ ومن شروط الحركة النهضة انهيار مجالات المقدس فالمنطق العقلاني والتحليل العلمي يكشف لا عجائبية أية أعجوبة أو صدف أو عثرة تاريخية. لقد مر اقتحام مجالات المقدس بحلقات متدرجة لم تحصل دفعة واحدة وما كان مستحيلأ أصبح ممكناً؛ مثلاً قدر لفكرة المادة أن تعرض كحقيقة راسخة إلا أن مطلع القرن العشرين وضع هذا الرسوخ موضع تساؤل وتمخر الفيزياء اليوم فيما هو أبعد من علاقات الارتباب.

وتمثل التقنية أحد مظاهر الحداثة من الثورة الصناعية الأولى إلى المعلوماتية والعقول الالكترونية فكما بلغ الإنسان مرحلة استهدف أخرى والنظريات العلمية تشبه نوعاً ما قوس قزح فتقدم ما يبدو لنا أولاً وتتدرج على مثال ألوان الطيف.

لا يملك الإنسان طبيعة بل تاريخاً، والفصل بين الحقيقة الاجتماعية والحقيقة التاريخية هو فصل مصطنع بعض الشيء فمنظومات القيم والأفكار والعلوم تعكس روح ثقافة وتاريخها ومسارها الخاص.

قد تقع الحداثة أسيرة اللعبة التي تريد تمزيقها إذ أن تبديل البنى التقليدية يحمل حرجاً

فراغاً واضطراباً من فقدان الضمانات القديمة ولكنه اضطراب منتج في عالم متقلقل بين القديم الذي يفقد كفاءته والجديد الغريب المفاجئ. وقد تنحرف الحداثة من عقلانية التنوير إلى عقلانية جامحة كثيراً ما يعبر عنها الأدب الحديث أدب العبث واللامعقول. وللحداثة سلبياتها فنزع السحر عن العالم يجعله يبدو كنيباً. ففي التاريخ مد وجزر فعل ورد فعل خير وشر نور وظلام فلسفة (ماني) الأثنينية ملاك وشيطان لم يرض بالندية بل طالب بالغلبة والسيطرة وهو وإن لم ينتصر فإنه لم يهزم بعد والحرب سجال بينه وبين البشر.

إن القيم الجديدة تتصدع بدورها بعد مرور أقل من مائتي عام على ظهورها من جراء الحروب والمذابح الجماعية. إن البذرة تحمل خرابها ولكن لتحيا بشكل مغاير أجمل وأفضل ومهما يكن من أمر منعطفات ومنحرفات فالحداثة عملية مستمرة ودائمة على الرغم من كل شيء. إنها في حالة تجدد دائم واستهلاك لذاتها. تتيح التطور والتفتح لكل الإمكانات والاحتمالات ولن ترى في الكون سرّاً مستغلقاً بل سرّاً موجلاً.

ثمة اعتقاد يكاد يكون فطرياً عند العربي يدفعه إلى اعتبار الأقدم هو الأفضل ذلك أنه لم يصل بعد إلى الحد الأدنى من المحاكمة والتفكير ولا يمكنه تصور إعادة بناء شيء وقع تجاوزه تاريخياً.

يحكمنا النموذج يقول الجابري: "نموذج سلفي أو معاصر أو اغتراب والنموذج يقول بويحاصر الفكر فلا ينظر إلى الكون، إلى الآخر بموضوعية بل من زاوية محددة".

إن الأزمة في الفكر العربي هي الانسداد والالتفاف حول نفسه والتغني بذاته وهذا موقف مرضي (Ego Centrico)

التمركز على الذات موقف يرى نفسه ذروة الحضارة والثقافة والقيم. إن الفكر العربي فكر مستريح متفائل لأنه فكر إيديولوجي يعيش مع نفسه لا مع الحقيقة ويغوص في الماضي حيث يخيم الإذعان اليأس والحنينية الحزينة. إن الوعي الزائف للماضي ينعكس على الوعي الحاضر فيزيغفه. لقد ابتلي الفكر العربي بالمحدودية التي ضيقت مجال الممكن التفكير فيه ووسعت دوائر المستحيل والممنوع التفكير به فدخل زنزانة أطال المكوث فيها؛ قال معروف الرصافي:

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

فكثيراً ما يصطدم الفكر العربي بمواقع دوغمائية وتصبح الامتثالية الموقف الشائع داخل اسكولاستيكية اتباعية اجترارية معبأة بالقوة الكلامية واللفظية للعبارات المنقولة. وبدلاً من أن يؤرخن يحول التاريخ الحالي إلى رواية سردية اعتبارية انتقائية وتنغلق الدائرة فتتأخر لحظة التجديد بالخلط الخداع وأساليب التلاؤم السهل والتستر والمغالطات التاريخية.

إن التقليد ينتقي ويستخدم إيديولوجيا مجموعة من الأفكار والعقائد والممارسات على أساس أنها دينية ولكنها مقالات تبجيلية مناضلة بشكل منافق براغماتي. ويستطيع الفقهاء أن يشوشوا الحقيقة التاريخية عن طريق تلاعبهم بالأحاديث والتفسير وتوجيهها في الاتجاه الذي يريدونه.

لا ينبغي خلط ذلك بالتحديدات المثالية والطموح المطلق والبحث عن الكمال أو باختصار الدينامو الروحي للأديان؛ على عكس الثيولوجيا السلفية التي تحاول تثبيت الأشياء على الرغم من ضمها خلسة نتائج العلوم ولكن

العلم ينتقم لنفسه عاجلاً أو آجلاً. هدف الحداثة تجاوز الصرامة النظرية والنزعة الاختزالية والخضوع لعودة نقدية باستمرار على ذاتها. يصرح الخطاب العربي بالنزعة العلمية ويدعيها ولكنه في الوقت ذاته يرفض العلوم الإنسانية والاجتماعية ويقف حاجزاً في وجه التغيير ويقدس السلفية، إنه ذاتي لا موضوعي، ضد التاريخ والعقلانية ومنطق الواقع. يتغير الواقع ولا يتغير فهمنا له لأننا نخضع لمبدأ التكرار ومرجعيتنا في سنة الأولين من آباء وأبطال وأولياء وفقهاء. إن العالم لا يعمل بالإيديولوجيا الدوغمائية بل بثورات العلم التي تغير التصورات حول الواقع، تدمر القديم وترشح الجديد؛ والمسافة بين البحث العلمي والتساؤل الدائم للحداثة، والتأكيد المغرور لليقينات الاعتباطية في فكر الشيولوجيين الدوغمائيين بما فيهم الماركسيون فاصلة.

إن إعطاء العقل العربي أو الهوية القومية العربية ماهية ثابتة مناقض للعقل الحضاري الحديث واعتباطي ميتافيزيقي لا علمي؛ والمجتمع العربي يعيش ضحية فرضياته التقليدية السابقة فصورة العالم الستاتيكي الجامد أصبحت من التركيبات العتيقة. لقد دفع الإسلام العرب إلى التجديد والتغيير والاجتهاد وتجاوز ما وجدوا عليه آباءهم. والحداثة تجاوز يكشف السلبيات ويحول العقل من الخرافة والقدرية والسحرية والانفعال إلى العلم الموضوعي وترك التصلب الذهني والتسلط المميت للإبداع المنكفي على الذات المتقوقع في التقليد الذي يقيم المحرمات التابوات ويخطط الحدود والآفاق المحظورة باسم ما يفرضه على أنه الحقيقة الوحيدة. إن التقليد تصلب في الرأي واستبدادية فكرية تقلص المعلومات وتبسط المشاكل؛ يأخذ

بالتوفيقية التي توازي بين القيم الدينية والحضارة الأوروبية عن طريق التنظير التبريري القائم على إرجاع القيم والمنجزات الأوروبية إلى جذور أو أصول عربية إسلامية وتجييرها بالتفسيرات الدينية. قال الشاعر:

وكل يدعي وصلاً بليلي
وليلي لا تقرر لهم بذاك

وأكثر من ذلك يبرر التقاعس بأن الله سخر العالم الغربي حيث يستثمر جهوده ويتمتع باكتشافاته وبحوثه دونما تعب ولا نصب. قل اعملوا وسيرى الله عملكم. ليس في العير ولا في النفير. ينتقي يأخذ ويترك على هواه، يوفق يجير لحسابه والتوفيقية شورية كما قيل. لقد كانت أحد أسباب تخلفنا لأنها قيدتنا فكرياً تقيّة من أصحاب النفوذ والمحافظين وكلما ازدادت حدة الحماس والتصلب كلما أصبح النقد الموضوعي ممنوعاً وكلما ضاعت فرص التفكير الحر. لقد نادى المعتزلة بالاجتهاد الذي سنه الإسلام ومن شروط الاجتهاد تثير عالم الإنسان العقلي والروحي وغياب مفهوم العصمة وتحرير العقل من المسلمات الشيولوجية فإذا ما استعاد الفكر العربي هذا المنهاج فإنه سيمتلك وسائل كفيلة بمواجهة المشاكل بمصادقية أكبر وابتكارية أقوى.

ما لم تتحرر النهضة العربية من سيطرة الأيديولوجية ومن عقدة التراث، وما لم تتبنى الموقف النقدي فلن تملك القدرة على تغيير الواقع المتردي، اختارت الأنتلجيسيا العربية التقليد الموديل الأكبر، فعجزت عن الدفاع عن وجود الأمة بلا تجديده؛ إنها تدافع عن التقليد الذي تجاوزه العصر عوضاً عن الدفاع عن وجودنا دفاعاً واعياً عصرياً. إن

قيام إسرائيل ليس صدفة واستمرارها ليس
أعجوبة بل هي جزاء تاريخي للتقليدية
والتخلف. إن عنايتنا بالمنهجيات أقل من
عنايتنا بالشروح وبدلاً من السؤال ماذا نفعل
يكون السؤال ماذا نقول.

لقد أضحي موضوع الحداثة أكثر
إلحاحاً وتأزماً في عالمنا العربي وإننا
لمضطرون لخوض مراحلها على الرغم من
ظروفنا الصعبة إقليمياً ودولياً. إنه قدر التقدم
العربي؛ ومسؤولية تسييره مسؤولية الفكر
والمفكرين؛ الفكر أولاً وقبل كل شيء فهو
السابق والدافع والرافعة والمحرك، لتصبح
العقلانية العربية أكثر نقدية وديناميكية تخضع
باستمرار للأسئلة المطروحة والمستجدة دوماً
لكشف المجاهيل وتواكب تسارع التقدم التقني
والاكتشافات الهائلة في عتبة وما وراء عتبة
عالم واسع من الاحتمالات غير المحدودة؛ ولن
يتسنى لها ذلك إلا إذا ابتعدت عن عقلية
المتاجرين من مصنفين ومفتقرين إلى التحرر
الفكري، وأخذت بالتركيز والتكيف لاستثمار
الزمن وكسر تواتره عبر الحقائق العلمية
والأمانة للواقع دون الالتفات إلى الوراء ودون
الاستبدادية الفكرية.

إن صنع المستقبل الأفضل هو صناعة
الثورة التي تتناول قضايا المجتمع الحضارية
والثقافية، المادية والروحية في أدق سرائرها
الوجدانية والدينية والاجتماعية.

كانت مقولة ديكارت الشهيرة
(الكوغيتو): "أنا أفكر أنا أشك أنا موجود" من
ألوليات النهضة الأوروبية وبداية تحرير العقل
من سلطة الكنيسة وسلطة السلطان السياسية
والبابا الروحية وولادة حداثة راکمت زلزال
وزعزت يقينيات منها الإصلاح الديني وفلسفة
الأنوار التي ناقضت التقليدية ورفضت
المسبقات المطلقات الميتافيزيقية والمعتقد

الإيماني وأكدت على العقلانية والعلم والحرية
الفكرية ضد الاستبداد الأسكولائي التلقيني.
إن التطور العلمي يتلخص في الانتقال
المتلاحق من الأسطورة والإيديولوجية إلى
الحقيقة الواقعية.

علينا ألا نأخذ الكلام على عواهنه
فيغني كل منا على ليله أو على ليله، وعلينا
أن نغربل بل ننخل كي نبعد الزؤان والضار
فليس كل ما قيل تاريخياً بل كثيراً ما يكون
اختلاقاً خدمة لمصلحة، لتيار، لمرحلة وبحق
سمي تداول الأقوال (عنغات). علينا أن نقرأ
بين السطور فلم نزل نعيش في عالم التقية
واللف والدوران، لا يكفي أن نقرأ علينا أن
نناقش ونغني. لا تكمن المشكلة في الفرضية
بل فيمن يفترض وفي الذي يتقبل دون تساؤل.

يقول ماركس: "الخجل هو بداية الثورة"
أي اعتماد المرء النقد الذاتي دون شفقة ودون
رضى والانتقال من التغني والغنائية إلى
التاريخية والموضوعية. سنل بابلو نيرودا:
"لماذا لا تتغنى بالزهر؟" فأجاب: "انظروا الدم
في شوارع تشيلي" لو ينفع التغني لأحال الحال
وحال دون الاحتلال.

إذا بقي الفكر العربي حالماً هارباً
تواكياً اتكالياً فسيوضع خارج الزمن. وما لم
تتحرر النهضة العربية من سيطرة الإيديولوجية
ومن عقدة التراث وما لم تتبنى الموقف النقدي
فلن تقدر على تغيير الواقع المتردي. إن معركة
البناء أقسى من معركة التحرر الاستقلالي
وأطول والأصالة تبني ولا تتخذ بقرار. في حين
أن التقليد أي السلفية تتمحور على الماضي
تتمحور الحداثة على المستقبل. ليس من
نظرية للحداثة فهي سيرورة تاريخية وصيرورة
إنسانية في حركة مستمرة خلاقة، إنها ثورة
فكرية اجتماعية دائمة.

عندنا مصلحون لا ثوريون يهربون من المعارك الحاسمة يقدمون نصوصاً يترجمون يشرحون بحذر، ينسحبون من المواجهة ويختبئون وراء واجهة وعوضاً عن السعي لما يمكن أن نكون يأخذنا السراب الخبي إلى ما كنا.

سنعطي للحياة معنى إذا أطلقنا أنفسنا خارج أنفسنا ذاتها لكي نستعيدها من خلال الآخرين. إننا في النهاية (نحن) في التحرر الفكري أكثر من أي تجربة أخرى.

فور أن نعبّر البوابة المظلمة نتوج تجربة الآخر بنور الانفتاح العلمي والعالمي. والحاجة للخلاص من الهواء الفاسد الذي أحدثته النوافذ المغلقة كبيرة ولا بد من الانفتاح على التجارب الإنسانية للاتطابق في التجربة الذاتية وليس الطريق وحيداً إلى روما أو إلى مكة بل تتعدد الطرق بتعدد الجهات والمناطق التي يأتي منها الحجيج.

إذا تحققت العقلنة على مختلف الأصعدة تجعل من العرب قوة هائلة لا يرتاح الأعداء لتحقيقها والإمكانات وفيرة والطاقات كبيرة إذا ما عقد العرب العزم وانتزعوا الفرصة ونهضوا إلى مواكبة التاريخ.

تطلع الإنسان إلى الأفضل والأسمى فأخذ يتجاوز ويتسامى في مجالات الحق والخير والجمال. سن القوانين ونأدى بالمساواة والحرية وإبداع الفنون تزويقاً للحياة وتصعيداً بالجماليات. "إن الجمال سينقذ العالم" يقول دوستويفسكي. والله جميل ويحب الجمال والجمال ضد القبح، ضد الشذوذ، ضد الاستبداد والاستعباد. ضد الجهل والتخلف. وهذه اللا جماليات جرثومة تأكل وتهين المشاعر والكرامة ولا شك إنها تلوث وتمرض وتقصر الأعمار. إن متوسط عمر الإنسان في البلدان التي تعير الجمال اهتمامها أعلى من مستوى

عمره في البلدان اللامبالية والتي لا تفرق بين الغث والسمين.

إذا كنا قد عجزنا عن تحقيق الكثير من مطامحنا وآمالنا فلا أقل من أن نبدأ بأنفسنا باللجوء إلى الجمال بأصنافه المادية والمعنوية بدءاً من العناية بالبيئة: بالماء والخضرة والهواء وصولاً إلى تثقيف الروح وتربيتها على احترام الآخر والطبيعة والإعجاب بالطبيعة بهدف تحويلها. للجمال أبجدية علينا أن نتعلمها.

يقول المتشائمون: كنا وليس في الإمكان أبدع مما كان. ويقول العلمانيون: سنكون وسنبعد خيراً مما كان، وسنسير صعوداً إلى المجد في الأعالي والسلام على الأرض والمسرة في الناس. وعلى الرغم من الاحترافات والنكسات والامتثال الذي يجري هنا وهناك فإن البشرية تتلمس طريق الارتقاء عبر متوالية حسابية إن لم تكن هندسية إلى إنسانية بل وإلى الألوهية. والطريق مفتوح والسبل عديدة والمركبات الحديثة غيرها القديمة لأن يحلق الإنسان في الآفاق خير من أن يحط وينبطح، أولى به أن ينطح الثريا من أن ينطح الثرى ولا فرق بين معقد ومقعد إلا في ترتيب الحروف والقضية في النهاية قضية الوعي الثقافي. لقد أنسنت الألوهية ليتأله الإنسان فهل تختفي المعركة بين السلفية والحداثة.

ويقول هيدجر، وهو ابن الفلسفة الألمانية العتيقة: "ما يبعث على التفكير هو أننا لم نفكر بعد. ولا يمكن للعلمنة أن تنشر ضمن الفراغ الثقافي. الآمال كبيرة والطموحات جادة والعملية جديرة بالجهود:

سيري أمانة إن الركب مرتحل إلى الأعالي بتحديث وتنوير



امراة..

شعر: محمود حمود

(١)
امراة ترضع الرصاص بنيتها
تدوس رقاب العدو
وصدر يعاند ريحا
كثير الحنو

(٢)
امراة تُفقد الليل طهارته
يفضحها النهار

(٣)
امراة آفاقها طيف
أنوثتها خفر
يستحم بها النقاء

(٤)
امراة وقت تشاء
تزرع الحلم
تفصله على مهل
تغنيه
تغنيه
وتذروه الرياح
تجف الآمال منها
والأمانى والنساء

(٥)
ما إن خسرت كونها آلهة
حتي (قام الكون وقعد)
لن أحيا عبده.



قصة

الكلام

المباح

بقلم:

فاضل السباعي

كان على يقينٍ من أنهم سيلقون القبض عليه فور أن تطأ قدمه أرض المطار. ولكنهم - يا للغرابة - (لم يفعلوها) لا ضربوا على الحاسوب، فارتسم على شاشته الصغيرة اسمه بالخط الثلث. ختموا أوراقه، وردوها إليه باسمين. ودخل، دون أن يلتفت إلى حيث تجمع القادمون حول (البساط الدائر)، فمتاعه كله هو ما احتوته الحقيبة الصغيرة المدلاة من كتفه. لم يفتحها رجل الجمارك، الذي بدا مهذباً جداً، وأشار له بيده أن: "عدت؟ فادخل مرحباً بك في وطنك الحبيب".

في صالة الاستقبال كانوا في انتظاره. عناق ودموع. عشر سنين نفياً اختيارياً. عيونهم تتلفت، فما تزال ثمة خشية من أن يطبقوا على حبيبهم العائد.

ارتمت الطفلة في أحضانه:

- أنا لم أرك إلا في الصور.

قال أخوها:

- ولم نسمع صوتك إلا عبر المكالمات الهاتفية والإذاعات و(الفضائيات).

لم يصدقوا أنهم يرونه لحماً ودماً، وأنه وصل إليهم عبر مطار العاصمة في وضح النهار.. لكانهم في حلم! أعلنها:

- جئت، يا أحبائي، لأموت في الوطن، ولو في إحدى زناناته. لقد أضناني البعاد حتى اشتقت الموت.

طوال الليل وهو يتحدث. وما كان حديثه إلا ليزيد في مخاوف الذين عذبهم الشوق إليه. دينه الانتقاد: الكشف عن الأخطاء التي استشرت، وتعرية الفساد الذي شمل كل شيء. توسل إليه ابنه، الذي بات يُناهزه طويلاً:

- أبتاه! ابق لنا، بعد الحرمان الذي عشناه دهرًا طويلاً.

عُدوني رحلت، واكتفوا بالذكرى، يا أولاد. إن سكّت الذين وهبّتهم العناية القدرة على القول والفعل، فمن ذا الذي يُفتّح العيون على العيوب ويدفع الأذى عن الوطن!

- يا أحياء! ألا ترى أن هناك إصلاحاً ما؟

- ما أنا على يقين منه أن الفساد قد تراكم طبقات بعضها فوق بعض.

- يا زواجه! ألم تر أنهم أتاحوا لنا أن يتحقق حلمنا بهذه الجلسة الهنيئة؟

- هذا يُملي عليّ أن أرى ما بعد ذلك.

ويرنّ جرس الهاتف.

- بيت المفكر (الأستاذ عبد الصبّور)؟

- من المتكلم؟

- هنا فرع (السبع سبعات). يكون طيباً منك، يا سيّدي، إذا سمحت لي أن أبلغ الأستاذ على الهاتف رسالة قوامها سبع كلمات! همست:

- إنهم يطلبونك لفرع (السبع سبعات).. رسالة من سبع كلمات.. أحسب أنني في حلم!

قال بصوت جهير:

- نعم، أنا المواطن عبد الصبّور، العائد في العشيّة إلى الوطن.. من أنت؟ من تكون؟

- أنا (الجنرال ابن عبّاد) رئيس فرع (السبع سبعات)!

- وماذا يريد منّي الجنرال ابن عبّاد، الأندلسي كما يُخيّل إليّ؟

- نرجو حضوركم إلينا في الوقت الذي يناسبكم!

سبع كلمات بالعدد.. وانقطعت الكلمة.

ولم يدعوه يذهب وحيداً.

دخلوا المبنى دون أن يسألهم أحد الحراس عن (إذن دخول).

ولما تبين ضابطٌ بنجمتين أن الواقف أمامه إن هو إلا (الأستاذ عبد الصبّور)، الذي دعاه الجنرال إليه قبل قليل، هبّ واقفاً ليؤدّي له التحية، ثمّ يسرف في عبارات الترحيب، وهو ينسلّ إلى مكتب رئيسه.

- رئيس الفرع في انتظارك، يا سيّدي.

وجد هذا الرجل، (الجنرال ابن عبّاد)، ضئيل الجسم وذا عيّنين متقدّتين غائرتين في وجه أسمر ليموني.

نهض يصافحه:

- كلّ ما تُصرّح به، يا أستاذ عبد الصبّور، (يؤرّشف) عندنا.

- يا له من جهلٍ تبدّلونه في هذا الخصوص!

- إن عندنا رجالاً قد كُفّوا القيام بهذه المتابعات.

- سمعنا أن نصف الشعب منوطٌ به مراقبة النصف الآخر.

- ذلك من أجل حماية الوطن من أعدائه.

- أنت من (بني عبّاد)؟

حملق الجنرال:

- ولم هذا السؤال؟

- اسمح لي، يا سيّدي الجنرال ابن عبّاد، أن أحدثك حديثاً شائقاً، عن أن في تاريخنا سميّاً لك: (ابن عبّاد)، اسمه الكامل: (المعتضد بن عبّاد)، كان يحكم (إشبيلية) في زمن (ملوك الطوائف). تقول الرواية التاريخية، أن الرجل كان يقتل خصومه ويجعل جماجمهم في خزائن في قصره، وقد كتب بيده على كلّ جمجمة اسم صاحبها، وكان يخرجها كلما عنّ له، ليتمتع بمشاهدتها ذات يوم غضب ابن عبّاد، في

مجلس له، على صديق من كبار مثقفي عصره، فأمر من حوله بأن يقتلوه. ولما كان هؤلاء يعرفون أن الرجل صديق لسيدهم، وأنه بمنزلة الأستاذ له، فقد أحجموا عن تنفيذ الأمر بأن فرّوا من المجلس، فقال هو يقتل صديقه بيديه.. أسألك، يا سيدي الجنرال: هل أنت من سلالة ذلك الرجل؟

تملّل الجنرال:

- أظن.. أن الصلة بيننا.. مقطوعة.. ولكن (فطين الجنرال ابن عبّاد) إني دعوتك لأبلغك أنك متّهم بـ (العيب بالذات الثورية)!

- تهمة لا أنكرها!

- فأنت موقوف منذ الساعة، لتقدّم إلى (محكمة الأمن الإيديولوجي).

- أظن أن زنّانة في (معتقل المنّلا حسنين) تنتظرني!

واقْتيد، غير مكبّل اليدين، إلى سيارة تنتظر في الفناء. وجدها - يا للغرابة! - فارهة، ومكيّفة، وقد تكون مصفحة فلا يخترقها الرصاص. ولم تتّجه به إلى حيث (معتقل المنّلا حسنين) الذي يعرفه جيّداً، بل ساروا بها غريباً، فأتاحوا له - وهو غير معصوب العينين - أن يتمتّع بمشاهدة الضواحي الحديثة، التي كثيراً ما سمع أن المسؤولين، الذين بنّوها بـ (عرق الجبين)، يسكنونها سعداء: دروب ملتفة، ساحات واسعة، فيلات أنيقة، تحيط بكلّ منها حديقة غناء..

وإلى إحداها دخلوا به.

- هذا طابق (للاستقبال)، وفيه قاعة المكتبة؛ والطابق العلويّ غرف للنوم والراحة، وفي السُّفليّ المطبخ وغرفة الطعام، ومبيت الحرس.

تراعى له أن يسألهم:

- أهي مكتبة عامرة؟

- تُعانيها بنفسك. وإذا افتقدت فيها شيئاً تريده أتينا لك به. وهناك خطّ هاتفي..

- فيه (الصفّر)؟

- الصفّران.. تستطيع أن تتّصل به إلى أنحاء العالم.

- و(الفاتورة)؟

- يُسدّدها (السبع سبعات). وهنا خطّ للفاكس. ويريدُ إلكتروني. وإن شئت بعثنا إليك سكرتيرة.

وبيّنوا له، بصراحة لم يتوقّعها، أن الأملاك التي جرّوا على مصادرتها من الناس، منها ما كان يعود إلى رجال (العهد البائد)، ومنها ما يخصّ (المُتراجعين). إن هذه الفيلا هي لواحد من قياديّ الأمس، تراجع متخاذلاً، حين ظنّ أن "وعيه قد عاد إليه"، وهو الآن قابض في (المنّلا حسنين)!

- أهو مثقّف إلى درجة أن يقتني هذه المكتبة النفيسة؟

- سوف تكون سعيداً بمطالعة ما فيها من مصنّفات غير مسموح بتداولها!

- أهو قريبٌ موعد الجلسة الأولى؟

- سنحاول ألا يكون بعيداً.

- لا تبذلوا كبير جهد في هذا الخصوص!



مسح بنظره أرفف المكتبة: كتب قيّمة، مصادر أصلية، موسوعات: بلغة، باشتين، بثلاث لغات.. إن لم يكن، هذا الذي هو فيه، حلماً، أتراها (مكيّدة) ينسجون خيوطها بدم بارد: رفاهيّة وبُلَهنيّة عيش، ثمّ يحتالون عليه بالسّم، ويُعلنون: قد مات حتف أنفه، ويمنعون تشريح جثته!

جلس وراء المكتب الفخم: دفاتر من ورق أبيض، ووردي، وبزرقة السماء. أدوات كتابية مختلفة الأشكال والألوان.. وإذن، فإن ساكن البيت كان - بعد ثقافته - كاتباً أو شاعراً.. يا له من (تراجعي) قد امتلأ معرفة وذوقاً! قرع الجرس. فأقبل عليه واحد من الحراس. ضرب بكعب حدائه الأرض، مؤدياً التحية بأعرق تقاليد العسكرية:

- حاضر سيدي!

لا، لا.. إن عليه أن يُدّد هذا الحلم الكاذب!

تناول قلماً. بدأ بكتابة العنوان: (لن أدعهم يخدعونني)، بل: (أنا لا أشتري بالنعيم الزائل).. أو لماذا لا يُسميها: (الحرية أغلى)؟

ولما فرغ من كتابة المقالة، بعد وقت لم يعرف مداه، رأى الفتى ما زال منتصباً أمامه. ضحك: هذه أول مرة أكتب فيها مقالة عنيفة في ظل رجل سلطة وإن كان صغيراً!

دُعي إلى الطعام.. لله درهم: ويُجيدون إعداد الموائد! خدمة (خمسة نجوم)!

في المكتبة أرسل المقالة، عبر الفاكس، إلى إحدى جرائد المهجر. لسوف يستغيرون: من عاصمة بلده، التي وصل إليها في العشيّة، يكتب لهم هذه المقالة اللاذعة.. أي جديد حصل! تصفح كتاباً، قلب أوراق موسوعة.. وفجأة تذكر:

- آلو! أجل، إني بخير. لم يَزَجُوا بي ي (معتقل المنلا حسنين) كالمرّة السابقة، بل جعلوني في فيلا أنيقة، قد صادروها من واحد من المنشقين المتراجعين، فيها من وسائل الراحة، ومن الكتب، ومن أدوات الكتابة وأجهزة الإرسال والاستقبال، ما يعجز عقل عن تصوّره.

- غير معقول!

- كتبت مقالة نارية، بعثت بها الساعة إلى المهجر.. وسوف أشرع بكتابة أخرى!

- ألن تكفّ عن هذا؟

- قالوا أن لي أن أستقبل الأهل والزوّار.. العنوان: (فيلاّت المسؤولين الأكابر)، غربي العاصمة، رقم الفيلا (٧٧)، في كلّ طابق سبع غرف، كلّ سبعات.. أُقيم فيها بمفردي. قالوا أستطيع، أيضاً، أن أستضيف أفراد أسرتي فيبيتوا عندي!

- يا (للتصحيح) الذي حصل!

- ينبغي التأكد.

كُتب، وكُتب..

تكلم، عبر الهاتف، إلى كلّ من يود أن يتحدث إليهم في أرجاء المعمورة..

تنقل بين (الفضائيات) في العالم.. وزار (المواقع) على الإنترنت..

قرأ، قرأ كثيراً..

نام، قال، استيقظ..

استقبل الزوّار. ارتفعت أصواتهم في المناقشات الحامية حول الحرية، والاضطهاد، والتتكيل، والفساد، والرشوة، والتحيّز، والتهميش، والتعتيم، واحتكار السلطة، وأعداء الداخل وأعداء الخارج.. قلبوا صفحات التاريخ القديم والحديث والمعاصر، واندفعوا إلى آفاق المستقبل القريب والبعيد.. بعضهم اتهمه بالتخاذل والاستسلام.. وكانوا، في كلّ ذلك، واثقين من أن مناقشاتهم تُسجّل في هذه الفيلا - المصنّدة، ولكنهم لم يكونوا آبهين!

❖ ❖ ❖

- اسمك؟

- ألا تعرفونه؟ (عبد الصبور).

- الشهرة، الكنية؟

- إن ذكرتها لكم، أيها الجهابذة،

فسوف تضحكون.

- نعدك بالأ نضحك.

- هل تأكلون، في أمسيات الصيف،

تلك الفاكهة الشوكية، التي يُقيم باعثها

الموسميّون المصاطب من أجلها على قارعة الشوارع السياحية، محيطين أنفسهم بشقوق الأزهار والرياحين؟

- تقصد (تين الصبار)!

- أنا من أسرة (صبارة).. اسمي الكامل:

(عبد الصبور صبارة)!

فرآهم ينكثون بوعدهم: يضحكون حتى

أوشكوا أن يستلقوا على أقميتهم!

- المهنة؟

- (مُدمِن معارضة).

- منذ كم من الزمن؟

- في الداخل بضعة عشر عاماً، ومثلها

تقريباً في المنفى الاختياري.

يقول رئيسهم بلهجة ودّية:

- يا أستاذ (عبد الصبور صبارة)، يا نور

عيوننا!

-! ...! ...!

- قد اطلعنا، نحن أعضاء (محكمة

الأمن الإيديولوجي)، على كلّ ما قدّمته لنا

(شعبة محفوظات الوطن)، ممّا كتبت،

وصرّحت وأدليت، وخطبت.. وعرفّتنا (أجهزتنا

الراصدة) على أفكارك المستقبلية وتطلّعاتك

الخاصة والعامة، الوطنية والقومية والعالمية..

وقرأنا، بإمعان زائد، كلّ ما خطّته يدك في حقّ

(النظام) من المآخذ والبهادل، وما كلّته له من

الشتائم القبيحة، وما كلّت به جبينه من التّهم

الشنّيعه.. وسمعنا كلّ ما تحدّثت به، أنت

وأصحابك، في تلك الفيلا المريحة التي

أسكنّاك إيّاها، من أننا جرينا - وما زلنا -

على اعتقال الأبرياء بالظنّ والشبهة، وأننا نسحق

كلّ (تنظيم) مُناوئٍ قبل أن يتمكن من الوقوف

على قدميه، وأننا ننتهك حقّ الحياة لخصومنا

المعارضين، ولكنّ - للحقيقة والتاريخ - إننا،

يا أستاذ عبد الصبور، لا نجعل جماجم في

أكياس، كما كان يفعل صاحبك (ابن عبّاد) الذي تتغنّى بحكاياته، بل نحن ندفّتهم في قبور جماعية، واحداً بجوار الآخر، في صفوف منتظمة، رحمةً بعظامهم وراحةً لنفوسهم.. فوجدنا، أيها المفكّر الكبير، أنّ كلّ ما صدر عنك، من قولٍ ومن فعل، وكلّ ما يتردّد في رأسك من الخواطر والأفكار، صحيحٌ مئة بالمئة، وهو ممّا لا يجول إلّا في بال غيورٍ على وطنه، وإنّ خالطته أمورٌ خاطئة لنقص في المعلومات التي تتوارد إليك.. وعليه فقد قرّرنا..



تقول الحكاية:

إنّ المحكمة أعلنت قرارها، فجاء بـ(عدم مسؤولية) الأستاذ عبد الصبور عن كلّ ما كتب وصرّح وباح!

ويقول عبد الصبور أنّ الجنرالات الخمسة، ما إنّ لفظوا حكمهم، حتى غابوا عن عينيه فكأنهم ما كانوا، وقوُسُ المحكمة زال، ولحقت به جدرانها وسقفها، ووجد نفسه في العراء، فتوجّه إلى بيته سيراً على الأقدام.

وتمضي الحكاية إلى القول بأنّ هذا المواطن الصبور وجد أنّ الكلام، كلّ الكلام، أصبح مباحاً: فالناس، كلّ الناس، يكتبون وينتقدون ويندّدون، ولكن لا تأثير لذلك البتّة، فقد تبلّدت الأحاسيس، وتحجّرت القلوب، وتجمّدت العقول، واستوى عند الناس الفرح والحزن، الضحك والبكاء، اللذة والألم، الحياة والموت..

وقد تقدّم إليهم مراراً بطلب السماح له بالعودة إلى منفاه، لعلّ ما يفعله هناك يكون أقدر على التأثير، ولكنهم كانوا يعتذرون له في كلّ مرّة من عدم الاستجابة، مُرغمينه على البقاء في هذا.. السجن الكبير.

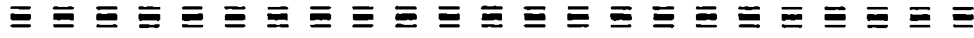


رحيل..

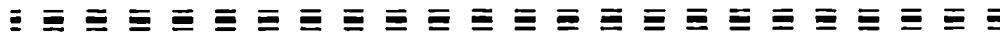
شعر: ديالا صالح مشرقى

ويسألني هل نويت الرحيل؟
فأحبس في العين أنهار دمعي
لأن الذي قد تبقى...
من العمر شيء قليل..
ويسألني عن حياتي
فيرتجف القلب مني
كأن السؤال محال
كأن الجواب من المستحيل
يفكر في البعد عني
ويسعى إلى البعد عني
ولكن تضيق المسافات حولي
تضيق الدروب
وما من دليل..
ويسألني هل نويت الرحيل؟
فيختصم الموت.. والعيش عندي
لأن الحياة مع الموتِ دربٌ طويل
ويجرحني بالكلام الذي ينتقيه
فأعلن في السر صمتي الذي أرتضيه





فصمتُ طويلٌ.. وصبرُ جميل
ويسألني هل نويت الرحيل؟
فأذكر ما كان بالأمس منه
وأذكر ما كان بالأمس مني
كأنني صحتُ على خيبتني
بعد حلمٍ طويل.. طويل
ويسألني هل نويت الرحيل؟
ويسألني أي وقت يكون الرحيل؟
أستعجلُ البعد عني
وينسى الذي كان منه ومني
إذاً سوف أرحلُ قبل انتصاف الطريق
لأن الذي قد تبقى من العمر
شيء قليل
وقد كنتُ قبلاً فتاةً تحبُّ الدروب
تحبُّ المواعيد
كانت تحبُّ اللقاء
وما كنتُ يوماً أحبُّ الرحيل
ولكنني اليوم أصرخُ من عمق صمتي
أجل يا حبيبي...
نويتُ الرحيل..
لأن الذي قد تبقى من العمر
شيء قليل.



بطرس البستاني

المعلم الخالد

١٨١٩ - ١٨٨٣

بقلم:

حكمت هلال

طلب العلم في صغره حتى أصبح فيه
أوحد زمانه، كان عالماً عاملاً، ومجتهداً
فاضلاً، وعبقرياً فذاً، شيخ العلماء وعمدة
الأدباء، وكان يتحلى بخلق أرق من النسيم،
وكلام أعذب من الماء السلسيل.

توارى الأديب العالم بطرس بن بولس
البستاني، وتوارت معه تلك الخصال الحميدة،
وتلك الشيم العالية الرشيدة، ذلكم هو اللبناني
القديم الذي حمل هموم وطنه كالوسام يزين
صدره، مدة حياته التي ليست بالطويلة،
وبالرغم من ذلك فقد كانت حياته حافلة بجلال
الأعمال.

كان أديباً فذاً، معلماً مميّزاً، صادقاً نزيهاً
في أقواله وأعماله، فمنذ نشأته وهو يسير
على طريق معبدة خالية من الأشواك والعقبات.
نبغ البستاني في سورية والعلم لا يزال
طفلاً في مهده، فأخذ بالتعلم والتعليم علماً
وعملاً وسلوكاً، فنال مقاماً رفيعاً في مجال
الأدب، وعُدَّ بين الناس من أهل العلم والفضل
على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم.

كان مخلص الطوية، دمث الأخلاق، لين
العريكة، صادق النية، محباً لوطنه، كريم الخلق
متسامحاً، بعيداً عن التعصب وضيق الأفق،
وكان سخياً ولا سيما على المشروعات الأدبية
والوطنية، لطيف المعشر، سهل المعاملة، حسن
المحاضرة، متخذ الصدق شعاراً، والنشاط
عماداً، كما تصفه مجلة الهلال المصرية، وكان
- مع ذلك - رفيع الجنب، وقوراً محترماً، لم
يجالس أحد إلا خرج وفي نفسه انعطاف نحوه،
وميل إليه، وفي قلبه احترام وتقدير لصفاته
وأعماله.

ولد المعلم بطرس بن بولس بن عبد الله
البستاني عام ١٨١٩ في إقليم الخروب من

قضاء الشوف في جبل لبنان، وفي قرية دبية، وكان من أعيان الطائفة المارونية في عهد إمارة الأمير بشير الشهابي الكبير، فظهرت عليه علامات النجابة والذكاء منذ نعومة أظفاره، فأخذ في تلقي مبادئ العربية والسريانية على المعلم المرحوم الخوري ميخائيل البستاني. فعلم المرحوم المطران عبد الله البستاني مطران صور وصيدا آنذاك، بأن بطرس البستاني قد تفرّد بالذكاء والفطنة والاجتهاد والسلوك الحسن بين أقرانه، فأرسله إلى مدرسة عين ورقة ببلبنان. ف قضى فيها عشر سنوات حتى أتقن آداب اللغة العربية وقواعد اللغة والمنطق، والتاريخ، والحساب، والجغرافيا، وتعلم اللغات السريانية واللاتينية والإيطالية بالإضافة إلى الفلسفة واللاهوت (وكان قد بلغ العشرين من عمره) فأراد غبطة البطريرك للطائفة المارونية إذ ذاك إرساله إلى رومية للتبحر في العلوم الدينية، وكان والده قد توفي وهو في سن الخامسة من عمره، فلم تقبل والدته بإبعاده عنها. فعين مدرساً في مدرسة عين ورقة تحت رعاية البطريرك.

وكان المعلم بطرس البستاني، قد درس اللغة الإنكليزية وتعلمها من المبشرين الأمريكان في بيروت. فعين مترجماً للإنكليزية. وكان الأمريكان دعاة المذهب الإنجيلي فتعرف ببعضهم، ودخل في مذهبهم البروتستانتية.

وأخذ يعرب لهم بعض الكتب حتى توطدت علاقة الصداقة والمودة بينهم. وفي عام ١٨٤٦ افتتح الدكتور كارنيليوس فان ديك مدرسة عبية فاستعان بصاحب الترجمة في إنشائها، وعين معلماً فيها لمدة عامين (كما جاء في مجلة الهلال لجرجي زيدان) فألف في أثنائها كتاباً في علم الحساب سماه (كشف

الحجاب) طبع مراراً وذاع استعماله في سائر المدارس وكتاب (مصباح الطالب) الذي يقول فيه:

إن المقصود منه نفع أولاد المسيحيين، ولكن المعلم بطرس البستاني بدأ تلك المقدمة كما لو كان مسلماً فقال: (الحمد لله العلي الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)، وهذا يدل على روح المحبة والتسامح بين الأديان السماوية.

وكما تكشف أعماله عن حبه للوطن وتسامحه الديني، وترفعه عن الطائفية البغيضة، وأكبر دليل على ذلك ما نشره في (نفيير سورية) عام ١٨٦٠ أيام المحنة والقتال بين النصاري والدروز قوله: (يا أبناء الوطن. الفطائع والمنكرات التي ارتكبتها أشقياؤنا هذه السنة في ظرف مدة قصيرة وصلت أخبارها إلى أطراف المسكونة... يا أبناء الوطن إنكم تشربون ماءً واحداً، وتشمون هواءً واحداً، ولغتك التي تتكلمون بها وأرضكم التي تطؤونها وهواؤكم وعاداتكم واحدة. فإذا كنتم لا تزالون إلى الآن سكارى من شرب دم إخوتكم في الوطن، أو طائشين من عظم المصائب عليكم، فلا بد من أنكم عما قليل تستفيقون من هذه الغفلة، وتدركون صالحكم، وخير بلادكم... وأدام الله بقاءكم. من محب للوطن بطرس البستاني)

وفي عام ١٨٦٣ أنشأ في بيروت مدرسة عالية سماها المدرسة الوطنية فتقاطر إليها الطلبة من سائر البلاد وذاع صيتها في الآفاق، فحصل على نيشان من الحضرة السلطانية.

ثم حقق وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي رغم أنه لم يمارس الشعر طيلة حياته.

بعد ذلك عين ترجماناً في قنصلية أمريكا مع مباشرة التأليف والترجمة والوعظ والخطابة، فاستعان الدكتور غالي سميث الأمريكي بصاحب الترجمة على ترجمة التوراة إلى العربية. ومن ثم باشر بتأليف معجمه (محيط المحيط) وفرغ منه سنة ١٨٦٩ وقد أخذه عن أشهر متون اللغة، ولاسيما الفيروز آبادي ويمتاز بما يلي:

١. رتبته على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثي المجرد.

٢. جمع فيه كثيراً من الألفاظ العامية وفسرها بالفصحى.

٣. أوضح كثيراً من أصول الألفاظ الأعجمية التي كان أصلها مجهولاً أو مهملاً.

٤. أدخل فيه كثيراً من الاصطلاحات الحديثة.

طبع هذا المعجم في مجلدين كبيرين، واستخرج منه مختصراً سماه (قطر المحيط) في مجلدين لتلامذة المدارس. ولما تم طبع محيط المحيط، بعث بنسخة منه إلى الحضرة الشاهانية، ونسخة إلى الصدارة العظمى، وأخرى إلى نظارة المعارف بالأستانة. فوقع عمله هذا موقع الاستحسان، فأجازته الحضرة السلطانية بالجائزة الأولى التي ينالها المؤلفون وهي النيشان المجيدي من الدرجة الثالثة. ووهبته مئتي ليرة ذهبية عثمانية.

وفي عام ١٨٧٠ أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها (الجنان) وعهد بإدارتها إلى ابنه سليم البستاني، وفي أواسط هذه السنة من عام ١٨٧٠ أنشأ صحيفة سياسية سماها (الجنة) وهي تعد ثاني أقدم الجرائد السياسية العربية ببلاد الشام، وقد سبقتها (حديقة الأخبار) في سنة ١٨٥٨ لصاحبها خليل

الخوري صاحب المطبعة السورية. ومن بعدها أصدر جريدة (الجنينة). ومن أشهر أعماله المهمة (دائرة المعارف) وهو كتاب فريد لم ينسج على منواله في اللغة العربية في عصره، فشرع فيه عام ١٨٧٥ يعاونه ولده سليم وبعض الكتاب، فأصدر منه ستة مجلدات، وتوفي وهو في بدء السابع.

وصدر منه بعد وفاته السابع والثامن والتاسع، وحالت دون إتمامه موانع أدت إلى تأجيله.

وبعده تعاون ابنه سليم مع ابن عمه سليمان خطار البستاني، فأصدرا العاشر والحادي عشر وتوقف العمل. وقد رأس بطرس مدرسة الأحد في بيروت خمس عشرة سنة، ترجم لها عدة رسائل دينية، دعا فيها إلى تربية الأولاد والإمساك عن المسكرات.

وسن قانوناً للمدرسة الداودية التي أنشأها دواد باشا، وكان يحث كثيراً على تعليم النساء، وهو أول من خطب في هذه الموضوع بالشرق، وله خطب ومقالات كثيرة تلاها على منابر بيروت وفي جمعياتها.

كان رحمه الله مربوع القامة، مع ميل إلى الطول ممتلئ الجسم سمينا، قوي البنية، حازماً نشيطاً، ثابت الجنان، قادراً على الأعمال، لا يأخذه ملل ولا ضجر. فقد نبغ في وقت لم تتوفر فيه معدات الطبع والنشر، ولا اعتاد فيه الناس مطالعة الجرائد والإقبال عليها، ومع ذلك عمل أعمالاً لا يستطيع القيام بها مجموعة من المؤلفين.

فكان يؤلف ويعلم ويترجم ويدير أعماله، ويكتب عماله وأصدقاءه، ويدير مدرسته علماً وعملاً، ويستقبل زائريه بوجه بشوش، قل أن

يرجع أحد من بين يديه إلا شاكرًا حامدًا،
ممتنًا، ومقدّرًا هذا العالم الجليل.

آراء الأدباء والكتاب فيه

١. قال الأستاذ ملحم إبراهيم البستاني في
(كوثر النفوس):

إن المعلم بطرس البستاني كان في عصره
شيخ العصامين، مات أبوه وهو صبي صغير،
فما إن بلغ أشده، ووعى حقيقة أمره، حتى
دفعته نفسه إلى الإقدام، فدأب على العمل ولم
يقعه عنه إلا منيته، قيل: إنه كان يشتغل الليل
والنهار، ولا يترك من يومه إلا ساعات قليلة
للراحة حتى لقبوه بالجبار، وقد فاجأته المنية
وهو في الرابعة والستين من عمره.

٢. وقال حنا أبو راشد صاحب القاموس
العام:

(كان المعلم بطرس البستاني معلماً حكيماً
وربناً ماهراً، عرف كيف يخدم ذويه وأمته،
ويقودهم إلى شاطئ الخير والفلاح والسلام.
فكان بحق أبا النهضة الأدبية الحديثة ورسولها
دون منازع، وفي حياته عبرة وذكرى لقوم
يعقلون).

٣. أما جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال
فإنه قال:

(إن بطرس البستاني أحد أركان النهضة
العلمية في بلاد الشام، وكان أعظم الرجال رفيع
الجناب وقوراً محترماً، لم يجالسه أحد إلا خرج
وفي نفسه انعطاف إليه، وفي قلبه احترام له،
فكان حينما ذكر اسمه قرن بالمدح والتثناء
والتجلى والوقار).

٤. وقال فيه أديب إسحق وهو يرثيه:

أجل إن المصيبة فيك مصيبة للوطن، يا
من أنفقت العمر في خدمته، مقدماً مجتهداً،
صابراً متجلداً، متعففاً مستقيماً، كنت فينا مثال
الفضل والاجتهاد ونموذج البراعة والأدب،
أولست أول من خط على صفحات القلوب رسم
صحف الجنان (حب الوطن من الإيمان): [من
الخفيف]

نَمَّ سَعِيداً يَأْمَنُ قَضَيْتَ فَقِيداً
بِجَمِيلٍ قَدَّمْتَ بَيْنَ يَدَيْكَ
أَنْتَ أَحْسَنْتَ فِي الْحَيَاةِ الْيَنَّا
أَحْسَنَ اللَّهُ فِي الْمَمَاتِ إِلَيْكَ

٥. ورثاه الدكتور كرنيليوس فان ديك الذي
كان يلزمه ويساكنه ويؤاكله ويشاربه زمناً
طويلاً. كانا معاً أخوين متضامنين. فرثاه
بقوله: [من البسيط]

إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي نَقْدِ الرَّجَالِ يَدٌ
انْظُرْ إِلَى الْمَوْتِ كَيْفَ الْمَوْتُ يَنْتَقِدُ
يَذُورُ فِي الْأَرْضِ حَوْلَ النَّاسِ مُلْتَمِساً
كَرِيمَ قَوْمٍ وَلَا يَرْضَى الَّذِي يَجِدُ

(وفي مصيبتنا إنه لا يرضى بما يجد ولو
رضي لقدمنا له بدل الواحد عشرة، ولكنه
ينتقي من الغابات أعلى أرزها، ومن المروج
أزكى رياحينها).

٦. وقال فيه يوسف أسعد داغر:

(إن بطرس البستاني كبير المهذبين والمثقفين
في العصر الحديث).

الخطاط

حسن المسعود

تجربة الخط

تجربة الحياة

بقلم:

سلام مراد

بدأ الخطاط مسيرته الطويلة من جنوب العراق حيث باشر الخط، واتجه إلى بغداد سعياً إلى الفن التلويني، إلى الصورة، من دون أن ينقطع عن الخط، وفي عام ١٩٦٩ دخل مدرسة الفنون الجميلة في باريس، حيث زاول الفن التلويني، غادر المدرسة ومعها أيضاً غادر الصورة، بقي في باريس ولكنه عاد إلى الرموز الخطية التي بدأ منها انطلاقه.

يقول ميشال تورينيه من أكاديمية غونكور الفرنسية، أن حسن المسعود "يبدأ بخطوط مقتضبة، ضمن فسحة محدودة كلاسيكية المظهر، يستبطن نصوصها الضيف والتوق، لكي تؤول إلى تنام يتجاوز حدود الصفحة، حيث للخط حركية اللوحات المعاصرة، ونص يزخر بالأمل".

إن لكل حرف في الخط العربي التقليدي، بناء يرتبط ببناء حرف آخر، فتشكل الحروف في ما بينها الكلمة. وتعدد الكلمات وتشابكها ليقول لنا إلى أشكال معمارية جميلة، يطلق عليها اسم التشكيل الخطية أو التكوين الخطي. يكرر بعض الخطاطين التشكيل نفسها عدة مرات ويعودون إليها أحياناً بعد سنوات محاولين الوصول إلى الكمال في معالجة الحروف وقوتها. والفراغ المحيط بها ونغم الشكل العام، هنا تبرز طاقة الخطاط وإمكانياته، لنعرف هل تخطى ما هو معروف من التشكيلات الخطية القديمة، أو أنه خلافاً لذلك، يكرر ما يشابه تشكيلات الماضي، وكذلك نبين عند الخطاط صدى شعوره بالجمال، ورهافة الذوق وثراء الذاكرة البصرية التي تحوي أجمل الأشكال وأمتنها.

ولادة التشكيلات الخطية تحت أصابع الخطاط، توحى كأنه يخرج أشكالاً يختزنها في مخيلته إخراجاً عفواً تلقائياً، بينما هي نتيجة

تفكير عقلائي أيضاً، إنه يأخذ الجملة ويحطمها، ويعيد بنائها ثانية، ولكن عبر رؤاه، فتكون التشكيلة الخطية كمرآة تعكس أفكاره وأحاسيسه الداخلية، وذلك بإعطاء الخط مظهر الخفة، أو الثقل، بزيادة البياض أو السواد الكثيف لرحفو، وبفضيل الانحناءات في الخط أو رشاقة الخطوط المنتصبة، وبتصعيد حرارة الديناميكية، أو بإعطاء برودة للسكونية، ترينا التشكيلة الخطية طبيعة الخطاط وتبدي عبر عمله ما هو مخفي من عوالم طفولته الغامضة. إن إمكانيات التحطيم والبناء للسطر فتحت الباب واسعاً أمام التعبير الفني في مجال الخط العربي.

فالتشكيلة الخطية يجب أن تكون حيوية وحركية، كما لو كانت بعض الحروف وتمنعها، وإذا افتقرت التشكيلة إلى هذه الديناميكية تكون رتيبة مُملة للعين، وخلافاً لذلك ترى التشكيلية نعش نفس المشاهد، بل تنشط تطلعه إلى الجمال، وتحمله على التخيل أكثر فأكثر برأي ميشال تورنيه تعني الديناميكية هنا بالتالي مقدار الطاقة المختزنة داخل هذه التشكيلة، وأن مجموع الحروف والكلمات داخلها يطالعا كعمل فني مجرد، يتحسسه ويفسره كل مشاهد حسب عالمه الداخلي.

أما قراءة النصوص نفسها، فإنها صعبة لأول وهلة، ولكن في أكثر الأحيان يقود التمعن والتأمل الطويل لمن يقرأ العربية إلى اكتناه النص.

في حوار مجلة الأفق العدد ١١٨ - ٢٥ أيلول ١٩٨٦ مع الخطاط حسن المسعود يقول: استعملت الحرف العربي كإناء وضعت في آلامي وآمالي. واليابانيون يقولون بهذا الصدد "إن الخط هو الإنسان نفسه" والأمر نفسه بالنسبة لي فحين انعكست تجربتي كإنسان على

الخط، أصبح الخط مأوى للحظات المأساوية والمفرمة والمتطلعة التي عشتها، الحرف العربي يمتلك قدرة كبيرة جداً يستطيع الفنان أن يبني أعماله الفنية تحت أفيائها، ويمكن أن تظل هذه الأعمال تجسيدا للحياة الانفعالية المزدوجة لها أصالتها ومعاصرتها الفنية المتميزة.

ويميز الخطاط حسن مسعود بين الخط العربي والخط اللاتيني وبرأيه يكمن الفرق أن الحرف اللاتيني استخدم في الطباعة منذ بداية القرن الخامس عشر بينما لم تدخل المطبعة إلى المجتمع العربي والإسلامي، إلا في القرن التاسع عشر وبشكل محدود جداً، وهذا يعني أن مهنة الخطاط في المجتمع الأوروبي اختفت في الوقت الذي لا يزال الخط العربي حياً ويمتلك صلته المباشرة بالواقع الديني المعرفي في حياة الناس، ويوضح المسعود أن هناك اختلاف ما بين الخطاطين العرب والمسلمين في الماضي والذين كانوا ينتشرون في كل مكان، وما بين العديد من الخطاطين في وقتنا الحاضر، فهناك خطاطون لا يعرفون أكثر من أسلوبين أو ثلاثة وهؤلاء لا يواصلون البحث الفني في القدرات والطاقات التي تكمن خلف هذا الكنز الفني الكبير أنهم بصريح العبارة، ليسوا أكثر من حرفيين.

الخطاط حسن المسعود يقول: لقد أصبح الحرف العربي هو مهنتي، وأصبح مورد عيشي وطموحاتي، فأنا أتعامل معه بخصوصية كبيرة وهذا التعامل من شأنه أن يجعلني أكثر ورقة وتصميمية، فأنا أعمل يومياً ما لا يقل عن عشر ساعات، وقد زادت اهتماماتي في الفترة الأخيرة بالحرف اللاتيني والحرف الصيني ولكن هذه الاهتمامات لا تزال من

الخارج فأنا أراقبها لأن ذلك يشكل إثراء نافعا ومفيدا لعمل مع الحرف العربي.

في لقاء لحسن المسعود مع خطي شمس بين مسيرة الخط العربي، سواء تجربة الخطاط الناسخ، الذي أدى دور المطبعة اليوم، وعرج على تجربة الخطاط المزين، الذي زين جدران المعالم المعمارية، أو حاجيات الاستعمال اليومي والكتب.. وهذا النوع من الخطاطين كان يستوحي الحرف ويستعمله لإبداع تكوينات ذات قيمة تشكيلية تجريدية، ففي الأعمال تتعاقب الكلمات والحروف قيماً بينها فيقصر حرفاً ويمد آخر وتخسر بذلك القراءة لصالح القيمة الجمالية.

وبخصوص تطور مسيرة الخط العربي، بين أنه هناك أساليب قديمة للخط عبرت قروناً عديدة ولا تزال مستمرة حتى اليوم، وذلك يعود لجماليتها وقدرتها على مطاوعة الزمن الحديث، بينما هناك أساليب أخرى انحسرت وضاعت أو ندر استعمالها.

هناك من ينادي بعدم تغيير الخط العربي، وكأنما الخطاطون هم مطابع وليسوا ببشر، هذا برأي الخطاط حسن المسعود غير صحيح، فالخط العربي تغير كثيراً وتطور على أيدي الخطاطين. وفي كل مرحلة كان يحدث فيها تحول اجتماعي.

كان هذا التحول ينعكس على فن الخط، لذلك نجد أن خط القرن التاسع في بغداد لا يشابه خط القرن السابع في مكة ولا يشابه خط القرن الرابع عشر في مصر، ويختلف كثيراً عما توصل إليه خطاط اسطنبول في القرن الثامن عشر.

أما كوفي المصاحف في القرن التاسع، فإنه يختلف عن الكوفي المتموت في جوامع

القاهرة، ويختلف أيضاً عن الخط الكوفي المعمول بالطايوق في معالم سمرقند.

وهكذا نجد أن الخط في حركة تطور مستمرة، في عصرنا الحالي يعيش في الخط أزمة خاصة، كما كل الفنون الإسلامية، فلقد فقدنا الكثير من الاختصاصيين، ولم يعد عدد الخطاطين المبدعين يتناسب مع عدد السكان في بلدان الأغلب العربية.

إن عالم الخط عالم واسع جداً، صعب المداس، والجوانب التجريدية فيه تلعب دوراً أهم وأكثر من الجوانب المادية، فالفراغ المحيط بالحروف أهم وأعلى قيمة من الحروف النابعة من النغم الكافي، والطاقة الآتية من تلاقي الحروف وتشابكها.

ومن الناحية التاريخية.. نحن نفتقر للوثائق التي تشهد على مراحل وأساليب كثيرة، فأكثر الأسرار الفنية دفنت مع الخطاطين الكبار، وأرقى الخطوط تسكن مستودعات المتاحف ومخابئها ولن يتمكن الكثير من الناس من رؤيتها بسهولة. أو ربما لن تشاهد أبداً.

وتدخل الناحية التقنية إلى جانب المعلومات النظرية والمشاهدات الجمالية والفلسفة الشخصية لتعطي أهمية تتراوح بين خط وآخر وبين فنان وآخر.

والناحية التقنية هي الناحية الأهم في الخط، ولولاها لأصبح كل النقاد خطاطين. وتحتاج معرفتها لزمن طويل من الممارسة والتمرين على حروف الأقدمين لمعرفة أسرارها الهندسية والجمالية، بعد ذلك يضيف الخطاط إليها من طبيعته وتجربته، فيكون الخط بذلك وسيلة تعبير معاصرة لزمن الفنان متضمناً ردود فعله إزاء أحداث عصره.



وفاء..

شعر: أحمد رضا رحمة

ساحرة العينين يا شادية!
أفديك بالعين وبالثانية
في سهرتي أنظّم عقد الهوى
شعراً جميلاً الحرف والقافية
كم مرة عيناك قد حوّلت
عني حديث النظرة الحاكية!
أسرتي وجهك طلقاً بدا
كالفلّ في نضرت الزاهية
لكنتي كنت له راسماً
مصوراً أطفاه الخافية
إحساء عينيك سباني ولم
يرحم نداء القلب يا غالية
مشاعري نحوك أبديتها
دقات قلبي ثرة حاميه
أحسست أنداءك تروي فمي
تبّل أشواق الهوى الظاميه
قوامك الجذاب في زهوه
كأنه مرآتي الصافية
ما أعظم الأم التي أحسنت
صقلك يا أنشودتي الباقيه!





قلبك مني مشفق حائر
في الحب لا يكذب إحساسيه
أصابني منك سهام الهوى
ما أروع المرمي والرامي
هذا هو الحب الذي قد بدا
يفيض بالصحّة والعافيه
أواه يا ربحانتي ما الذي
يجول بسين الأضلع الساجيه؟
في نظرة منك جمال الدنا
تحمل آفاق الرؤى الساميه
إني على العهد الذي شدني
إليك يا واحتي الناميه
أعيش من أجلك أحلى المنى
أحمل أحلام الصبا الباهيه
عيناك قنديلان في معبد
شيدته في أضلعي الحانيه
وشعرك الليلى - فديته -
أحاطني بالهالة السارية
الشاعر اليوم بعيد المدى
في فكره أخيلة ضافية
أشعاره في صوغها نعمة
وهي لأشواق الصبا راوية



البناء والهندسة

أ- بناء المدن:

- قرطبة

مدينة أندلسية تقع في الغرب الإسباني، تتفرع سفوح جبالها من سلسلة جبال سيرا مورينا، الممتدة شمالي المدينة. وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، الذي ينحني طفيفاً في مجراه نحو الغرب مؤلفاً أهم طريق طبيعي في أسبانيا الجنوبية وقرطبة مدينة إيبيرية قديمة البناء، كان اسمها (إيبيري بحت) وترجم بالعربية إلى قرطبة.

تأسست قرطبة في العصر الروماني عام ١٥٢ ق.م على نهر الوادي الكبير وذاعت شهرتها منذ الصراع بين قرطاجنة وروما ثم أخذت قرطبة تفقد شيئاً فشيئاً أهميتها أمام طليطلة، التي تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع الميلادي.

وفي عام ٩٣هـ / ٧١١م فتحت قرطبة أبوابها لجيوش المسلمين بقيادة طارق بن زياد. وأصبحت قرطبة، بعد فتح المسلمين لها، حاضرة أسبانيا الإسلامية، واستعادت مكانتها القديمة التي سلبتها إياها طليطلة.

حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس:

قد بلغت قرطبة في عصر الخلافة الأموية أوج عظمتها. وتآلقها الحضاري في حين كانت أوروبا ما تزال غارقة في أعماق التآخر والجهل والانحطاط، واعتبرت قرطبة أعظم مدن الأندلس والمغرب عمراناً. وثالثة مدن العالم توسيط كبير مساحة. فيها خلاصة حضارة الأندلس من أهم معالم وآثار قرطبة، قصر قرطبة القديم الذي اتخذ عبد الرحمن الداخل مقراً له، قصر الرصافة - والمسجد الجامع - ونهر قرطبة الكبير - وحمامات قرطبة وكان يوجد بها ٩٠٠ حمام في الوقت الذي كانت أوروبا تعيش قمة الجهل وكثرة الأمراض - وهناك دار الروضة وهي قصر عبد الرحمن الناصر. أما تاريخ قرطبة الإسلامية فيبدأ منذ عهد السمح بن مالك الخولاني الذي ولي الأندلس عام ١٠٠هـ / ٧١٩م، وهو الذي رفعها إلى مصاف الحواضر الكبرى. وفي عام ١٣٩هـ / ٧٥٦م بدأ نجم قرطبة بالصعود عندما أعلنها عبد

التفوق

الحضاري

العربي

في

الأندلس

إعداد:

سسمى خضير

لارا الخيمي

لجين الأيوبي

ليان بولاد

فرح حورستاني

يارا بيلتو

الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل عاصمة وقد جعلها مهذا للعلم والثقافة ومركزاً للفنون والآداب في أوروبا كلها، فقام بدعوة الفقهاء والعلماء، والفلاسفة والشعراء. فكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً. وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر من بعده، وصلت قرطبة إلى مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل ولقد نافست قرطبة في عهدهم بغداد عاصمة العباسيين، والقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والقاهرة عاصمة الفاطميين.

أهم معالمها المعمارية:

منذ أن تولى عبد الرحمن الداخل حكم قرطبة اعتنى عناية فائقة بالإنشاء والتعمير بالمدينة، فحصن العاصمة وزينها بالحدائق وأنشأ مدينة الرصافة ومقرها العظيم في الشمال الغربي على بعد ٤ كم من قرطبة، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة وأطلق عليها ذاك الاسم تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بن عبد الملك بالشام. كما أقام عبد الرحمن الداخل "دار السكة" لضرب النقود على النحو الذي كانت تضرب عليه نقود بني أمية في المشرق من حيث الوزن والنقش.

الأسوار: كما بدأ عبد الرحمن الأوسط عام ١٥٠هـ / ٧٦٧م في إنشاء سور قرطبة الكبير الذي استمر العمل فيه أعواماً كما أنشأ مساجد محلية كثيرة في قرطبة وغيرها وعلى رأسها المسجد الأموي الجامع الذي بدأ في إنشائه عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م. ويقع هذا المسجد في الجهة المقابلة لقصر الإمارة وبينهما مساحة واسعة استغلها عبد الرحمن في إنشاء قصر خاص لنفسه وعدد من القصور الصغيرة لآل بيته أحاطها بالحدائق الغناء وسور يدور حولها. وقد امتدت هذه القصور حتى وصلت إلى ضفة نهر الوادي الكبير فبنى عبد الرحمن قصور الإدارة ناحية النهر. كما فتح باباً في الشارع بين النهر والسور سمي "باب السدة" وجعله للجمهور، وبعد أن تولى عبد الرحمن الثالث الحكم عام ٣١٧هـ / ٩٤٩م أصبحت قرطبة من أكبر المدن في أوروبا وأكثرها

حضارة وثقافة وعلماء، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة. وكانت قرطبة في ذلك الوقت تنقسم إلى جانبين كبيرين: جانب شرقي وجانب غربي. وعند اتساعها تجاوزت نطاقها القديم جنوباً في الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير، وشرقاً فيما وراء باب رومية.

القناطر: ومن معالمها الحضارية تلك القنطرة التي كانت تجاه المسجد الجامع من الناحية الجنوبية وهي قنطرة رومانية الأصل، جدها المسلمون أيام السموح بن مالك أمير الأندلس وجددت بعد ذلك غير مرة وهي قائمة على ستة عشر عقداً وهي تربط قرطبة بضاحيتها المسماة (حي روح القدس) وما زالت هذه القنطرة تحتفظ بكثير من معالمها الأندلسية إلى الآن.

القصور: من الآثار الباقية منية العامرية وهي تقع على سفح جبل قرطبة على بعد تسعة كيلو مترات غربي قرطبة وثلاثة فقط إلى الغرب من مدينة الزهراء. وتنسب العامرية إلى ابن أبي عامر الذي بناها في عام ٣٦٨هـ / ٩٧٩م، وأحاطها بالجنان والبساتين، ثم أدار عليها سوراً منيعاً. وكان قصر العامرية يتكون من قاعات ثلاث متوازية، يحيط بها من الشرق والغرب غرف مربعة تتوزع ثلاثة في كل من الجهتين، وفي الشمال الشرقي يقوم بناء آخر ملاصق لهذا البناء ينقسم بدوره إلى غرف صغيرة لعلها كانت مرافق أو ملحقات بالقصر، وكان يتصل بهذه الغرف بركة كبيرة طولها (٤٩,٧٠) متراً، وعرضها (٢٨) متراً، وعمقها (٣) أمتار، أقيمت كلها من الحجر. أما أشهر قصور قرطبة فقصر الإمارة وقصر الرصافة وقصر دمشق وقصر الروضة.

المساجد: اشتهرت قرطبة بالعديد من الآثار التي تجسد روعة المعمار وتعد شاهداً على الحضارة الإسلامية في ذاك الوقت.

الحمامات: وكان أهل قرطبة يسترخون في حمامات عامة وخاصة كلها مدفأة وتجري فيها المياه الساخنة والباردة. وكانت الحمامات العامة تعتبر من أهم المنشآت المدنية في المدينة لكثرتها وتعددتها من جهة، ولارتباطها الوثيق بالطهارة المتأصلة بعمق في الإسلام من جهة أخرى، وقد تميزت قرطبة بوجه خاص بكثرة حماماتها حتى

قيل إن عددها بلغ ٣٠٠ حمام. وقد بلغ عدد حمامات قرطبة بعد أن تناهت في الاتساع في عصر المنصور ابن أبي عامر حوالي ٩٠٠ حمام.

- الزهراء:

وكان من أهم ما شاده في الأندلس بناء مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر في الأندلس بناءً على طلب جاريته الزهراء التي اشتته أن يبني مدينة يسميها باسمها كي تعيش فيها. وبما أنه كان يحبها كثيراً فقد بنى لها هذه المدينة وجعلها منزلاً ومسكناً لها ولحاشية أرباب دولته، وقد بدأ بنائها سنة ٩٣٦م على قطعة أرض مساحتها ١١٢ هكتاراً تقع في غرب مدينة قرطبة، وامتدت من الجبال الأكثر ارتفاعاً في سلسلة سيرانمورينا، وأشرف على العمل في تلك الفترة الحكم الثاني، ابن عبد الرحمن الناصر، واشترك في بنائها عشرة آلاف عامل كانوا يضعون يومياً ستة آلاف حجرة، وجلب إليها الرخام بألوانه كافة من مدن متنوعة، سواء في المشرق أو المغرب أو من مدن أندلسية أخرى، كما رصعت بالعاج والذهب وأحجار أخرى بارعة الجمال، وتم تكييفها مع جغرافية الأرض التي أنشئت عليها، إذ شيدوا فيها شرفات عدة جاءت على شكل درج، ابتداءً من سفح الجبل حتى السهل، وجعل شكلها الهندسي مستطيلاً حيث بلغ طولها ١٥٠٠م ممتدة من الشرق إلى الغرب وعرضها ٧٥٠م، وأحيطت بسور من جميع الجهات باستثناء الجهة الشمالية، وكانت تتكون من ثلاث مناطق، أهمها المنطقة العليا التي ضمت القصر الملكي (قصر الخلافة) البالغ الجمال، إضافة إلى أماكن إقامة أصحاب الرتب السامية ومسؤولي المصالح الإدارية والحكومية والعسكرية. أما المنطقة الوسطى فكانت تشمل حدائق وجنان بديعة جداً، سواء من حيث تنظيمها أم من حيث تنوع أشجارها وتفتح أزهارها. بينما احتفظت المنطقة السفلى بمسجد المدينة الذي ضم خمسة أبهاء جيدة الصنع، وبهوا ذا صحن مكشوف مفروش بالرخام الخمرى، وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء، كما ضم منبراً بديعاً صنع بشكل بارع الحسن.

مدينة أثرية وسياحية:

وبعد مضي تسعة قرون على تدميرها، وبالضبط عام ١٩١١م، لاقت بقايا المدينة المدفونة الضوء من جديد نتيجة التنقيبات التي جرت فيها، وقد وجد الباحثون، إضافة إلى بعض المعالم العمرانية القليلة الباقية، قطعاً تذكارية مثل أواني سيراميك مزخرفة بلون أخضر وبعض الجرات الملطية بألوان براقّة وترساً مصنوعاً من البرونز، كان يستعمل كصنبور لخروج الماء. وقد وضعت هذه اللقى في متحف الآثار المحلي في مدينة قرطبة الذي يضم كثيراً من القطع التذكارية العربية الإسلامية العائدة لفترة حكم العرب لقرطبة. هذا وتحظى مدينة الزهراء باهتمام كبير من قبل علماء الآثار ومن بلدية مدينة قرطبة ومن حكومة إقليم الأندلس، حيث تتابع لجان البحث تنقيباتها ويرمم بعض المعمارين جدران وأراضي بعض مبانيها مثل صالون عبد الرحمن الناصر ضمن خطة طويلة وشاقة جداً، كما يعدّ سنوياً كثيراً من المنشورات السياحية عنها، التي تساعد على إعادة اهتمام الزوار والسياح بها، وخاصة من العرب والمسلمين الذين يحنون إلى رؤية آثار أجدادهم.

الزاهرة:

مدينة متصلة بقرطبة من البلاد الأندلسية، بناها المنصور بن أبي عامر لما استولى على دولة خليفته هشام. وقد تم بناء مدينة الزاهرة في سنة ٩٧٩م، وانتقل إليها المنصور بحاشيته وخاصة من الحرس وشحنها بأنواع الأسلحة ثم نقل إليها خزينة الدولة ودواوينها وأقطع ما حولها لكبار رجالات الدولة من عسكريين ومدنيين فساروا سيرته وابتنوا القصور الفخمة وعمروا المنتزهات الواسعة وتنافس العامة في البناء حولها حتى اتصلت عمائرها بالعاصمة قرطبة. لم تعمر مدينة الزاهرة طويلاً فقد كان عمرها رهيناً بعمر الدولة العامرية فما إن قتل عبد الرحمن الملقب شنجول حتى عم الخراب عمائر هذه المدينة ونهبت قصورها وانتهت رسومها في الفوضى التي عمت البلاد سنة ٣٩٩هـ واندثرت بهذا التخریب تلك المدينة اندثاراً يختلف عن ذلك الذي حل بالزهراء إذ عثر على الكثير من قطع المدينة الأخيرة مبعثرة

في بلدان أخرى وتم التعرف عليها بفضل ما عليها من كتابات بينما لم يبق شيء من مدينة الزاهرة سوى حوض من المرمر مكسور وغير كامل وصل إلى اشبيلية ويحفظ في المتحف الوطني بمadrid

ب- بناء المساجد:

إن نمط العمارة ذا الطابع الإسلامي المحض هو الذي استخدم في تشييد المساجد، حيث أن الآجر العربي والرخام والمرمر والجبس الزخرفي هي المواد المفضلة لبناء بيوت الله. وقد كان الأصل المتبع في بناء المساجد جميعها هو مشابهتها لمسجد النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كان عبارة عن جناحين أحدهما مغطى والآخر مفتوح على الهواء الطلق. هذا المخطط البسيط تم تطويره تدريجياً إلى أن تحول إلى مسجد جامع بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، بغية أدائه المطلوب لجميع الوظائف المنوطة به من صلوات وغيرها، خدمة لعامة المسلمين على الوجه الأكمل.

وكل المساجد كانت مستقبلة للقبلة أي باتجاه بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وكان في جدرانها الأمامي محراب، من أين يؤم الإمام المصلين. كما كانت تحتوي على منارة أو صومعة، من أين ينادي المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم والليلة. وكانت هذه المساجد مزودة بفناء أو صحن، أين توجد عدة ينابيع للوضوء أو مواضع. ويسمى الجزء المغطى من المسجد حرماً، وهو عبارة عن قاعة كبيرة واسعة ذات أروقة عمودية متجهة نحو القبلة.

هذه الأروقة تطول للغاية في بعض الأحيان لتتحول في نهايتها إلى دائرية متصلة بصحن المسجد. ومن أبرز المساجد الكبرى ذات الشهرة في الأندلس يأتي بلا جدال في المرتبة الأولى مسجد قرطبة الجامع، أما أصغرها فهو المسجد الملكي الذي لم نعتز على اسمه العربي - قسم الترجمة.

المسجد الجامع:

ليس لهذا المسجد ميزة دينية زائدة على أمثاله من سائر بيوت الله.. إلا أنه لقي من اهتمام

أمراء الأندلس وخلفائها ما لم يلقه غيره من مساجد الدنيا.. اللهم إلا الحرمين الشريفين.

كما كتب عنه المؤرخون، ونعته الوصافون بما لم يكتب وينعت به مسجد آخر في الدنيا، إلى الحد الذي كدنا لا نصدق ما قيل، أو أن نعتبره مبالغة واضحة، لولا أن هذا المسجد لا يزال ماثلاً للعيان شاهداً على صدق ما قيل عنه..

إنه المسجد الجامع في قرطبة، قمة من قمم الفن المعماري العالمي على مر العصور، وأروع الآثار الإسلامية الباقية على الإطلاق.

مسيرة طويلة... قبل الكمال:

ولقد استغرق بناء مسجد قرطبة حتى وصل إلى أوج كماله أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان، فقد بدئ في إنشائه على صورته الحالية أيام عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠/ هـ واستغرقت المرحلة الأولى منه سبع سنين، بينما تمت المرحلة السادسة والأخيرة من بنائه أيام المنصور عام ٣٧٧ هـ أي بعد مئتي عام.

فإذا علمنا أنه كان مسجداً قائماً من قبل منذ أيام فتح الأندلس عام ٩٢ هـ، وأنه لم يفت أميراً في قرطبة توسيعه والزيادة فيه إلى أيام المنصور، كان ما قلناه عن عمر بنائه حقيقة لاخيالاً.

أسباب وجيهة وراء الاهتمام البالغ:

وكان مبعث اهتمام أهل الأندلس بجامع قرطبة وتعظيمهم له أن ثلثة من خيار التابعين من رواد الفتح الأول للأندلس، وعلى رأسهم حنش الصنعائي التابعي الجليل، هم الذين اختطوا المسجد، ووقفوا على تحديد قبلته باتجاه الكعبة المشرفة، بعد أن شاطروا النصارى نصف كنيسهم التي كانت في موقعه، والتي كانت تسمى (شنت بنجنت) أي القديس منصور، فأخذوا نصفها وأبقوا لهم نصفها الآخر، وكان المسجد في تلك المرحلة في منتهى البساطة.

ولما كثر المسلمون في قرطبة، ونزل فيها أمراء العرب من جند الشام ضاق بهم مسجد قرطبة، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة، ليؤمنوا للناس مكاناً مظلاً للصلاة فيه إلا أن

مجموع تلك السقائف قد ضايق المصلين، وشوه المنظر، لتلاصقها وقصر أبوابها وتطاحن سقفها، حتى ما يمكن أكثر المصلين من القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض.

الخطوات الأولى في الصرح المشيد:
وبقي الأمر هكذا طيلة ثمانين عاماً، إلى أن كانت إمارة عبد الرحمن بن معاوية المرواني المسمى بالداخل، بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق، فاشترى من النصارى النصف الآخر من كنيستهم، وهدم البناء القديم للمسجد، ورفع مكانه بناء جديداً، وصرف همهته ليكون هذا المسجد الجديد الجامع في حاضرة ملكه (قرطبة)... تحفة فريدة من حيث بهاؤه ودقة زخارفه ورواء منظره، فأرسل في طلب الأعمدة اللازمة له من قرطاجنة وإيطاليا، كما طلب الرخام الموشى من أريولة وإشبيلية في الأندلس ومن مدينة قسطنطينية، حتى اجتمع له الرخام الأبيض مع المرممر الشفاف الوردي أو الأخضر، حتى بلغ ما أنفقه ثمانين ألف دينار ذهبية، غير مادفعه للنصارى ثمن كنيستهم وهو مئة ألف دينار.

مساحات وأبعاد البناء الأول:
وكان بيت الصلاة في مسجد قرطبة في بنائه الأول هذا يبلغ ٧٥ متراً طولاً و٦٥ عرضاً، يضاف إليه صحن فسح تعادل مساحته مساحة بيت الصلاة تقريباً.

وكان بيت الصلاة مكوناً من ١٢ رواقاً موازياً لجدار المحراب وتسعة أروقة عمودية على جدار القبلة وكان الرواق الأوسط أوسع من بقية الأروقة...

وقد عهد عبد الرحمن الداخل إلى عبد الله صعصة بن سلام - صاحب الصلاة في المسجد - بفرش صحن المسجد الجامع بالأشجار، حتى جاء بناء هذه المرحلة من المسجد رائعاً جميلاً، نتيجة تعدد ألوان الأعمدة والعقود، من جهة وارتفاع السقف فوق الأعمدة مع ما نقش على الخشب الملبس على السقف من آيات قرآنية ورسوم زاهية بألوان بديعة... وقد استغرقت المرحلة الأولى من جامع قرطبة ثلاث سنين.

تتابع الجهود بعد المرحلة الأولى:
وفي سنة ١٧٢ هـ توفي عبد الرحمن الداخل فخلفه ولده هشام، فزاد في المسجد صومعة (منارة) بلغ ارتفاعها أربعين ذراعاً إلى وقوف المؤذن للأذان.

كما بنى بأخر المسجد سقائف لصلاة النساء وأمر ببناء الميضأة بشرقي الجامع.. ثم لما كانت خلافة عبد الرحمن الأوسط - رابع خلفاء بني أمية الأندلسيين - زاد فيه زيادتين: الأولى بسيطة، والثانية عام ٢٣٤ هـ - عندما ضاق بالناس المسجد، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة، فأمر بتوسعته من جهة القبلة بزيادة بهوين مسقوفين إلى ابهاء المسجد التسعة الأولى، وصير سعة كل بهو من هذين المزيدين تسعة أذرع ونصف.

وفتح في هذين البهوين بابين بسور المشرق والمغرب للمسجد فكملت أبواب الجامع السبعة.

وصارت مقاييسه بعد ذلك ١٣٠ متراً طولاً و٧٥ متراً عرضاً بما في ذلك الصحن، كما صارت سواريه المضافة فقط ثمانين وصنع للمسجد محراباً جميلاً.

كما ابتنى في مؤخرة صحن المسجد سقيفة شمالية لها ثلاث وعشرون سارية ليوسع بها مصلى النساء...

وقد قام ولده محمد بن عبد الرحمن من بعده باستكمال هذه التوسعة وزخرفة المسجد، وأضاف إليها المقصورة إلى يمين المحراب، والقنطرة العليا (الممر الخاص) فوق الشارع الرئيسي بين القصر والجامع، ليسلكها إلى المسجد دون مرور في الشارع.

المنارة البديعة:

وفي سنة ٣٤٠ هـ بنى عبد الرحمن الناصر المنذنة الحالية محل المنذنة القديمة التي بناها من قبل هشام بن عبد الرحمن الداخل، وكانت هذه المنارة منذ القديم ولا تزال - من بدائع المنارات وغرائبها، ويقال لها: المنارة الأعظم بقرطبة.

وقد حفر أساسها فبلغ به الماء، ثم ارتفع في البناء على هيئة برج ضخمة يرتفع حوالي خمسة وثلاثين متراً في الهواء، وعرض كل جانب من جوانبه ٨٥ متراً، وعدد أدراجها مئة وسبعة أدراج، وأعجب ما فيها أن نظام بنائها يقوم على أساس كتلتين من الحجارة، يتلف حول كل كتلة درج مستقل، لا يرى من يرتقيه الآخرين على الدرج الثاني فيها، ولكل درج باب مستقل، فهي من الخارج منارة، ومن الداخل منارتان، يجمع بين درجيهما بيت المؤذن في أعلى المنارة، فكان المؤذن يدخل من باب الطريق، فيرقى المنارة ويؤذن، ثم ينزل من الدرج المفضي إلى داخل المسجد.

وفي أعلى المنارة سفود ركبت فيه ثلاث تفاحات أو شمسات: ثنتان من ذهب خالص، والثالثة من فضة أكسير. فإذا سطعت الشمس عكست التفاحات الثلاث أشعتها بقوة تغطي النواظر، وتخطف ببريقها الأبصار.

كما أمر الناصر بعمل مظلة على صحن الجامع بقرطبة، وقاية للناس من حر الشمس، وأمر بترميم الجامع والعناية به عناية فائقة، حتى قال المقرئ نقلا عن ابن بشكوال بلغت النفقة في جامع قرطبة أيام الناصر مائتي ألف دينار، وكان الذي يشرف على هذه الأعمال ابنه وولني عهدده الحكم الملقب بالمستنصر، وقاضى الجماعة بقرطبة المنذر ابن سعيد، أم الذي نفذها فهو سعيد بن أيوب صاحب مبابي الخليفة.

جامع قرطبة... أول قرارات المستنصر:
بعد أن تولى الخلافة الحكم المستنصر عام ٣٥٠هـ رأى ما يعانيه المصلون من ضيق مسجد قرطبة - على سعته بهم - يقول ابن عذاري المراكشي: وافتتح خلافته بالنظر في المسجد الجامع بقرطبة، وهو أول عهد (قرار سلطاني) أنفذه، وقد ذلك (أمر به) حاجبه وسيف دولته جعفر بن عبد الله الصقلي، وذلك لأربع خلون من رمضان من سنة ٣٥٠هـ وهو اليوم الثاني من يوم خلافته، وكان قطر قرطبة (محيطها) قد كثر به الناس، فضاق الجامع عن حملهم، ونالهم التعب في ازدحامهم، فسارع المستنصر إلى

الزيادة فيه، فخرج لتقديرها وتفصيل بنيانها، وأحضر لها الأشياخ والمهندسين، فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء ماداً بالطول لاثنى عشر عقداً، وكانت كل هذه الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسة وتسعين ذراعاً (حوالي ٤٠ متراً) وعرضها من الشرق إلى الغرب مثل عرض الجامع سواء.

وقطع من هذا ساباط القصر (القنطرة) المتخذ لخروج الخليفة إلى الصلاة إلى جانب المنبر بداخل المقصورة، فجاءت هذه الزيادة أحسن ما زيد في المسجد، وأشدّه واتقنه... وبهذه الزيادة وصل الجامع إلى ضفة النهر.

محراب قرطبة... لا نظير له:
وقد أضاف المستنصر إلى جامع قرطبة محراباً أجمع كل المؤرخين على أنه أجمل ما في مسجد قرطبة الجميل بل أجمعوا أنه أجمل محارب الدنيا...

يقول المقرئ: والجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله، فيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه، وبقبلته صناعات تدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبعة أقواس فائقة على عمد، طول كل قوس فوق القامة، قد تحير الخروم والمسلمون من حسن وضعها، وفي عضدتي المحراب أربعة أعمدة اثنان لازورديان وليس لهما قيمة لنفستهما.

ريباب المقرئ واصفا منبر جامع قرطبة ثقفون: وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعة، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعمود باقلي. وقد استغرق صنعه سبع سنين.

وفوق المنبر شيد المستنصر قبة ضخمة جعلت فوق المنبر، وزخرفت بالفسيفساء الجميلة التي قام بها معماريون مهرة متخصصون، أرسلهم قيصر القسطنطينية رومانوس الثاني كنوع من التودد والتقرب للمستنصر وشعبه، وهي واحدة من ثلاث قباب رائعة في بيت الصلاة.

قال لسان الدين الخطيب: إن المستنصر زين الجامع بالفسيفساء المجتابة من قبل ملك القسطنطينية مع الصناع المحكمين لذلك، محاذياً

بفعله ما فعله الوليد بن عبد الملك بمسجد دمشق، ففاق خدمته ومماليكه في تعلم ذلك (صنعة وتركيب الفسيفساء) وبرعوا فيه إلى أن كمل ما أراد.

قنوات ماء... ومقاصير للخدمات العامة:

كما أضاف المستنصر إلى جامع قرطبة القنوات التي مدّ فيها الماء إلى السقايات والميضآت التي بناها، وقد أوصل الماء إلى المسجد عبر قناة مدها من سفح جبل العروس قرب قرطبة، ليجري فيها الماء محفوظاً من كل دنس كما يفعل اليوم في مجارٍ مغلقة، ويقول فيها الشاعر محمد بن شخيص:

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف من أعذب الماء نحو البيت تجريها وأضاف المستنصر كذلك عدداً من المقاصير، منها: مقصورة دار الصدقة غربي الجامع، وهي أشبه ما تكون بمركز لتوزيع الصدقات، ومقصورة أخرى قبالة الباب الغربي كان الفقراء يتخذونها مسكناً لهم، ومقصورة ثالثة جعلها مكتباً لخطباء وواعظي الجامع وعماله.

وجعل حول الجامع ثلاثة مكاتب لمعلمي أولاد الفقراء، وبالغ في إكرام أولئك المؤذنين، وحبس حوانيت السراجين بقرطبة عليهم ليضمن دوام مرتباتهم.

وقد بلغت مساحة الزيادة المستنصرية ثلث المساحة الإجمالية للجامع، واستمرت قرابة أربع سنين من عام ٣٥١ - ٣٥٥هـ.

آخر الزيادات في التحفة القرطبية:

وآخر الزيادات في جامع قرطبة العظيم زيادة المنصور ابن أبي عامر، فقد أولى هذه الرجل جامع قرطبة عناية خاصة فوق ما كان يحظى به من عناية أسلافه، حتى أطلق عليه بعض العلماء اسم جامع المنصور، وقد كان يشترك أحياناً بنفسه في أعمال البناء.

وقد تمت هذه الزيادة سنة ٣٧٧هـ، وكانت بطول المسجد كله من ناحية الشرق، وتحري فيها المنصور أن تتفق في الهيئة والروح العام من بقية بنیان المسجد فأعطت المسجد، عمقا وسعة وجلالا، بعد أن بلغت أروقة المسجد الذاهية

إلى جدار القبلة ١٩ رواقاً وأصبح عدد أروقته الموازية لجدار القبلة ٣٥ رواقاً، وأصبحت مقاييس المسجد ١٢٥ × ١٨٠ متراً أي ٢٢,٥٠٠ متراً مربعاً، يشغل بيت الصلاة وحده منها أكثر من نصفها وهذا أضخم بيت صلاة بني في الإسلام.

وقد بلغت الأعمدة التي زادها المنصور وحده في جامع قرطبة ٣٤٥ عموداً، أما ما في جميع المسجد فكان ألفاً ومائتين وثلاثة وتسعين عموداً، من الرخام الجميل..

وأضاف المنصور إلى أعماله تلك تجديد الإتارة في الجامع، حتى بلغت الثريات التي تسرج داخل البلاطات - سوى ما منها على الأبواب - مئتين وأربعاً وعشرين ثرياً، منها أربع معلقة في البلاط، أكبرها الثريا الضخمة المعلقة في القبلة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة، زعموا أن فيها وحدها ألفاً وأربعة وخمسين سراجاً فقط.. كما وسع المنصور صحن المسجد بمقدار الثلث.

نشاط علمي رائد:

ولا يفوتنا أبداً أن ننوه بوضوح إلى الدور العلمي والفكري الذي قام به جامع قرطبة في الأندلس في مختلف عصوره، حتى تحول إلى جامعة حقيقية يتحدث عن نشاطها علماء المسلمين وغيرهم، ومن هؤلاء المستشرق الهولندي دوزي الذي أطلق على الجامع اسم جامعة قرطبة، وأشاد برعاية المستنصر للعلماء من مختلف الملل والنحل مسلمين وغير مسلمين وبين هذا المستشرق أن إغداقه على العلماء الأسبان - يعني المسلمين الأندلسيين - والأجانب - يعني النصارى - لم يعرف حداً، بل كان يشجع الجميع بمن فيهم الفلاسفة الذين طرحوا آراءهم بكل حرية وجرأة.

وقال أيضاً: أما جامعة قرطبة فقد كانت يومئذ أشهر جامعات العالم، وكان مركزها المسجد الجامع، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يدرس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي، ويملي أبو علي القالي، دروسه عن العرب قبل الإسلام وعن لغتهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يدرس النحو، وكان الطلبة يفدون بالآلاف.

وكان عدد العاملين في جامع قرطبة والمتصرفين فيه (أي عدد الإداريين والعلميين) من أئمة وخطباء ومقرئين ومؤذنين وسدنة وموقدين وخدم مائة وتسعة وخمسين شخصاً.

الأسبان... يعاقبون جامع قرطبة:

ولا يفوتنا ونحن نختم الحديث عن أروع قطعة فنية معمارية تركها المسلمون شاهدة على مدى حضارتهم وتقدمهم، أن نذكر بكل أسى وحسرة أن الأسبان عندما دخلوا قرطبة غالبيين عليها، ألقوا القبض على جامع قرطبة بتهمة التوحيد والعبادة، فحولوا بعض أجزائه بصورة شاذة، إلى كاتدرائية، كما عاقبوا منارته الرائعة البديعة على تهمة الأذان والتكبير فحولوها إلى برج للنواقيس، كما بالغوا في تتبع نشاطه العلمي الفكري فألغوا كل حلقة علمية، وطاردوا كل مدرس مختص، وأغلقوا كل كتاب مفتوح فيه.. وتلك لعمرى شواهد إثبات على الهمجية والحق.

وما يزال مسجد قرطبة الجميل حبيس أسريه، يذرف الدمع ويفجره في مقلة كل مسلم.. لقد كان بمساحاته وأعمدته، وقبابه ومنارته، وزخارفه ورسوماته، وكل الأعمال المدهشة التي فيه، يستحق من الوصف أكثر مما قاله فيه الكاتبون والمؤرخون، وهذا يدل على أن يد البناء المسلم وهي تطوع الحجر الأصم أقدر من لسان الكاتب البليغ وقلمه وهو ينسخ حروف الكلمات وتراكيبها.

ج- بناء القصور:

- قصر الحمراء

يعتبر قصر الحمراء أحد العناوين البارزة على التواصل الحضاري بين المسلمين وأوروبا. فهذا القصر يبدو نموذجاً مميزاً من قصور الأندلس يسلط التقرير التالي، المقتبس بتصرف من توثيق المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الأضواء على هذا المعلم الأندلسي الشهير. تعود بداية تشييد قصر الحمراء إلى القرن السابع الهجري، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، وترجع بعض أجزائه إلى القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي. وثمة خلاف

بشأن سبب تسمية هذا المعلم البارز باسم قصر الحمراء، فهناك من يرى أنه مشتق من بني الأحمر، وهم بنو نصر الذين كانوا يحكمون غرناطة بين عامي ٦٢٩ و٨٩٧ للهجرة، ما يوافق عامي ١٢٣٢ و١٤٩٢ للميلاد، بينما يرى آخرون أن التسمية تعود إلى التربة الحمراء التي يمتاز بها التل الذي تم تشييده عليها. ومن التفسيرات الأخرى للتسمية أن بعض القلاع المجاورة لقصر الحمراء كان يُعرف منذ نهاية القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن التاسع الميلادي؛ باسم المدينة الحمراء. ويُنسب قصر الحمراء إلى يوسف الأول، بين عامي ٧٣٣ و٧٥٥ هـ، الموافق لعامي ١٣٣٣ و١٣٥٤ م، ومحمد الخامس بين عامي ٧٥٥ و٧٩٢ هـ، مع انقطاع بين سنتي ٧٦٠ و٧٦٣ خلع خلالهما عن الحكم، ثم عاد إليه مجدداً ليبدأ في المرحلة الثانية من حكمه أهم التطويرات، ويكتب أغلب الأشعار التي يزدان بها القصر. ويتوزع هذا القصر على أقسام ثلاثة. القسم الأول هو المشور، الذي يعقد فيه الملك مجلسه، ويصرف أمور دولته، ويسمع ظلمات رعاياه، والثاني قسم الاستقبالات الرسمية، ويشمل الديوان وقاعة العرش، والثالث قسم الحريم، ويضم المسكن الخاصة الملوك. تتمثل الأعمال الإنشائية في مجموعتين، عبارة عن قصرين مندمجين، إذ تتمحور الصالات والغرف حول صحنين متعامدين مع بعضهما. وإلى عهد الأمير يوسف الأول تم بناء برج السيدات وقصر البرطل، وجميع المنشآت التي تحيط بصحن البركة، بما في ذلك برج قمارش الذي تقع فيه صالة السفراء، والمصلى وحمامات القصر. ثم أضاف الأمير محمد الخامس إلى هذه المجموعة صحن الأسود مع الصالات التي تحيط به، وخاصة قاعة الملوك أو قاعة العدل، وقاعة الأختين، وقاعة بني سراج. وكان محظوراً دخول صحن الأسود حتى على أقرب المقربين إلى الأمير، أما زخرفة الجدران والأقواس فهي في أغلبها نصف دائرية، والقباب المقرنصة. وهناك اختلاف واضح في الأسلوب الزخرفي بين ذلك الجزء الذي يعود إلى عهد الأمير يوسف الأول، وذلك الذي يعود إلى عهد ابنه محمد الخامس، إذ يقترب القسم الخاص بيوسف الأول من أسلوب المدارس في

والبرومان القديمة، إلا أن المسلمين طوّروا بل وبلوروا نمطاً فنياً جديداً، كما يبدو ذلك للعيان في الزخرفة والعمارة.

وحقيقة فقد ذاع صيت الفن الإسلامي أكثر فيما يتعلق بالزخرفة وفنونها، أكثر من غيره من الفنون الأخرى كالتشكيلية مثلاً.

ومع كل ذلك، فإن جميع الزخارف الإبداعية الإسلامية كانت تشمل كل مجالات الحياة وكل المواد والأحجام مع توظيف كل التقنيات المتوفرة آنذ. وكانت هنالك أربعة عناصر رئيسية لهذا الفن هي: الخط العربي، الزخارف النباتية، الأبعاد الهندسية ثم الأشكال والأنماط الجمالية.

هذه العناصر تشكل في نهاية المطاف زخرفة غزيرة فياضة، والتي تجعل المرء يشعر بالخوف أمام فضاء فارغ أو ظاهرة ما يسمى بـ "الخوف الأجوف".

فُسَيْفَسَاء زخرفية في مدينة غرناطة:
علم الهندسة مهمّ ومهمّ جداً في الفن المعماري الإسلامي، إذ أن هذا الفن سُخر لإثبات وحدانية الله - سبحانه وتعالى - وقد استخدمت الدوائر المتقنة المضبوطة كمعيار نموذجي مما يفسح المجال في إبداع موضوعات فرعية ذات صلة بالموضوع الأصلي.

أما في الرسم فقد طبقت مبادئ الإعادة التناظرية والتكثير أو التقسيم أو كليهما معاً، حيث تمّ التعامل مع الرسم كفن عقلائي ذهني أكثر مما هو عاطفي انفعالي طبقاً لمبادئ الرياضيات. وقد استخدمت في هذا الفن إطارات ذات خطوط متشعبة ومتقاطعة فيما بينها ومكونة أشكالاً كالمعين أو أشرطة ضفائرية، منعطفات، رسوم تعرجية وشطرنجية وعقد وروابط مكونة فيما بينها نجوم.

المكتبات والأدب

أ- المكتبات في الأندلس:

اشتهر الأندلسيون بحب الثقافة والإطلاع، وتقدير العلماء وإعلاء مقامهم، ولذلك كثر العلماء في الأندلس، وكثرت مؤلفاتهم، وقدمت الأندلس للثقافة الإسلامية العربية أعلاماً بارزين في مختلف العلوم والفنون. وقد انتشرت المكتبات في الأندلس،

فاس، والمساجد في تلمسان، أما القسم الذي يرجع إلى عهد محمد الخامس فقد تضمن عناصر جديدة؛ فليس لها علاقة بالرسامين العرب، إذ تبدو ظاهرة الاستعانة بالفنانين النصارى بوضوح. ورغم ذلك فإن القسمين يشتركان في انسجامهما مع واقع العمارة الإسلامية وتطابقهما مع التقاليد، كما هو موجود في فناء البركة مع الرواقين، وترتيب الحمام وقاعة السفراء التي تشغل تنوعاً واسعاً يشرف على الوادي، وكذلك الفناء الشهير الذي تقع فيه بركة الأسود الاثني عشر الرخامية، والذي عرف بهذا الاسم. وثمة جناحان محمولان على أعمدة رشيقة، يبرزان أمام أروقة تمتد على طول الضلعين الصغيرين لساحة القصر. وعلى مرتفع مجاور للحمراء؛ تقوم جنة العريف، وهي حديقة من منشآت ملوك بني نصر، وتحتوي على أجنحة وأروقة محاطة بحدائق جميلة تسقى من خلال قنوات ونوافير ماء. وفي قصر الحمراء يوجد حمام يرجع إلى القرن الرابع عشر، يحتوي على عناصر رئيسية معروفة، كقاعة الاستراحة ذات الزخرفة الغنية، والسقف المرتفع مع رواقين، ثم تأتي غرف مقببة بفتحات صغيرة، يدخلها النور، وبعد ذلك ممر يستعمل كقسم بارد، يأتي بعده قسم دافئ أكثر اتساعاً محاط بأروقة، ثم القسم الحار ومقصورات التدليك. وهذه الأقسام هي الميزة لحمامات هذا القصر، والتي تتشابه مع تلك الموجودة في جبل طارق، وفي مرسيليا، وفي جرش الأندلس، وفي بلاد البربر في وجدة، والعباد، وتلمسان. ومن سمات العمارة الإسلامية الواضحة في أبنية القصر؛ استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى بعض المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، وتحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو الجدران، وبلاطات القاشاني الملون ذات النقوش الهندسية، التي تغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

د- فن الزخرفة في الأندلس:

رغم استفادة المسلمين في فن الزخرفة في بعض عناصره من حضارات الإغريق

وأقبل الناس على اقتناء الكتب، حتى قيل: إن كل بيت في الأندلس لابد أن يكون به مكتبة حتى لو كان صاحبه عامياً. وقد أنشأ الحكم بن عبد الرحمن الناصر مكتبة كبرى في قرطبة تعتبر من مفاخر الأندلس، ومن أشهر المكتبات في العالم الإسلامي. وكذلك عملوا على جلب الكتب واستنساخها من المشرق، حتى قيل: إن النسخة الأولى من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني قد عرفت في الأندلس قبل المشرق، ذلك أن الحكم المستنصر قد بعث إلى أبي الفرج بألف دينار ذهباً، فبعث إليه أبو الفرج بالنسخة الأولى قبل أن يخرج للناس في العراق. وقد رحلت مجموعة من طلبة العلم في الأندلس إلى المشرق لتلقي العلم والأدب، ولنقل الثقافة المشرقية إلى المغرب والأندلس، ومنهم يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى المدينة المنورة، وتلمذ على الإمام مالك رضي الله عنه، ثم عاد إلى الأندلس. وكذلك رحل شاعر الأندلس المشهور يحيى بن الحكم الغزال إلى بغداد، والتقى بأدبائها، وروى عنهم الشعر.

كما أن الأمويين في الأندلس قد عملوا على جلب العلماء من المشرق إلى الأندلس وذلك لنشر العلم، فكان أن هاجر إلى الأندلس نخبة من علماء المشرق في الفقه واللغة والأدب وغير ذلك، مثل: أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي، وأبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي.

المكتبات في الأندلس

وقد كان المجتمع الأندلسي خليطاً من أجناس مختلفة؛ فهناك العرب الذين دخلوا الأندلس فاتحين أو هاجروا إليها بعد الفتح، وهناك البربر الذين شاركوا في الفتح الإسلامي أو نزحوا من الشمال الإفريقي، وهناك سكان الأندلس الأصليون من الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام، وكذلك أصناف أخرى من جنسيات متعددة كالصقلية وغيرهم.

وقد اندمجت فئات المجتمع الأندلسي، ووحد الإسلام بينها، وأصبحت اللغة العربية لغة الجميع، وساهموا جميعاً في الحضارة الإسلامية في الأندلس.

كما أن لأهل الأندلس عناية كبيرة باللغة العربية؛ فقد تعربت الأندلس بعد الفتح بفترة

قصيرة، ثم جاء الأمويون وهم متعصبون للغة العربية وآدابها فعملوا على نشرها وخدمتها، وكان أكثرهم من الشعراء والخطباء، فازدهرت اللغة والأدب في الأندلس، وكان من نتاج ذلك هذا التراث الأدبي واللغوي العظيم الذي خلفه لنا الأندلسيون، وساهموا به في خدمة اللغة العربية.

وقد كانت الأندلس درة الحضارة الإسلامية في أوروبا، وكانت مضرب المثل في الجمال والنظافة ومظاهر المدنية، فقد كان الأندلسيون بطبعهم ميالين إلى النظافة والعناية بالمظهر الحسن والأناقة في اللباس والسكن، وكانت طبيعة الأندلس تخلق الألباب بمروجها الخضر وأشجارها الجميلة وأزهارها الفواحة وأنهارها الرقراقة المتدفقة.

ثم أضافوا إلى ذلك ما أحدثوه من قصور جميلة ومدارس كثيرة ومساجد عظيمة، تدل على تقدم الفن الهندسي في البناء وعلى الذوق الجميل، وقد بقيت آثارهم إلى عصرنا هذا شاهدة على عظمتهم وذوقهم الرفيع.

ولم يخل المجتمع الأندلسي من عوامل الضعف ومكونات الفساد، فقد كان كثير منهم يميل إلى حياة الترف والدعة والإسراف واللهو والغناء بسبب ضعف الإيمان. ثم إن وجود عدد من الأسباب الذين لم يسلموا وعدد آخر من اليهود في وسط المجتمع الأندلسي كان من عوامل الانهيار والضعف، إضافة إلى استعانة بعض الحكام وخصوصاً في عصر الطوائف وما بعده - بالنصارى من ملوك الأسبان الحاقدين على الإسلام والإصهار إليهم، كل ذلك قد أدى إلى انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس وخروج المسلمين منها في آخر الأمر.

وقد كان لتلك الحضارة العظيمة التي أنشأها المسلمون في الأندلس الأثر العظيم الواضح على أوروبا جميعها؛ فقد كانت أوروبا تعيش في عصر الظلام والانحطاط والجهل في الوقت الذي كانت الأندلس تعيش في قمة الحضارة، فتلقت أوروبا العلم عن الأندلس، ورحل الأوربيون إليها لدراسة الطب والعلوم الأخرى.

وقد أقر الأوربيون بفضل الحضارة الإسلامية في الأندلس عليهم، وألفوا في ذلك كتباً ودراسات كثيرة.

ب- الأدب في الأندلس:

وقد اشتهر الأندلسيون بحب الثقافة والإطلاع، وتقدير العلماء وإعلاء مقامهم، ولذلك كثر العلماء في الأندلس، وكثرت مؤلفاتهم، وقدمت الأندلس للثقافة الإسلامية العربية أعلاما بارزين في مختلف العلوم والفنون. واشتهر من أدباء الأندلس:

ابن سيده:

علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م - ٢٦ ربيع الآخر ٤٥٨هـ/ ٢٧ مارس ١٠٦٥م) كاتب معاجم أندلسي. ولد في مرسية ونشأ في بيت علم، علمه أبوه اللغة العربية والنحو، كان أعمى كأبيه. توفي أبوه وهو صغير.

مؤلفات ابن سيده:

الوافي في علم القوافي، وله كتاب شاذ اللغة في خمسة مجلدات، وكتاب في التذكير والتأنيث.

وأما ما وصل إلينا من مؤلفات ابن سيده فتلاثة هي: المشكل من شعر المتنبي، المحكم والمحيط الأعظم.

أبو حيان الغرناطي:

العلامة محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين، أبو حيان، الغرناطي الأندلسي الجياني النفري ولد في غرناطة سنة ٦٥٤هـ، فقيه ظاهري

مؤلفاته: أشهر أعمال أبي حيان وأعظمها هو تفسيره الضخم البحر المحيط الذي يعد قمة التفاسير التي عنت بالنحو، وليس له مثل.

ابن زيدون:

أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي، أبو الوليد. وزير، وكاتب وشاعر من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس، فكان السفير بينه وبين ملوك الأندلس فأعجبوا به. وفي الكتاب من يلقيه ببحتري المغرب، أشهر قصائده: (أضحى التنائي بدلا من تدانينا) ومن آثاره غير الديوان رسالة في التهكم بعث بها عن لسان ولادة إلى ابن

عبدوس وكان يزاحمه على حبها، وهي ولادة بنت المستكفي. وله رسالة أخرى وجهها إلى ابن جهور طبعت مع سيرة حياته في كوينهاغن وطبع في مصر من شروحها الدر المخزون وإظهار السر المكنون.

ابن عبد ربه الأندلسي:

أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم أبو عمر. الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. كان جده الأعلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعرا مذكورا فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سماه الممحصات، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة واسعة وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه (العقد الفريد) فمن أشهر كتب الأدب سماه العقد وأضاف النساخ المتأخرون لفظ الفريد.

ابن هانئ الأندلسي:

محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة. أشعر المغاربة على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين. ولد بإشبيلية وحظي عند صاحبها، واتهمه أهلها بمذهب الفلاسفة وفي شعره نزعة إسماعيلية بارزة، فأساؤوا القول في ملكهم بسببه، فأشار عليه بالغيبة، فرحل إلى أفريقيا والجزائر.

أبو البقاء الرندي:

صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرندي، أبو البقاء. وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطيب وهو مشهور في المشرق بأبي البقاء. وهو أديب شاعر ناقد قضى معظم أيامه في مدينة رندة واتصل ببلاط بني نصر (ابن الأحمر) في غرناطة. وكان يفد عليهم ويمدحهم وينال جوائزهم وكان يفيد من مجالس علمائها ومن الاختلاط بأدبائها كما كان ينشدهم من شعره أيضا. قال عنه عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة كان خاتمة

الأدباء في الأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ونثره فقيهاً حافظاً فرضياً له مقامات بديعة في أغراض شتى وكلامه نظماً ونثراً مدون.

ابن حزم الأندلسي:

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري، شاعر وكاتب وفيلسوف وفقه. ولد في مدينة قرطبة وكان يلقب بالقرطبي إشارة إلى مولده ونشأته. اختلف في نسبه، أينحدر من أصول فارسية أم من أصل إسباني أم هو عربي صميم النسب؟! وعلى كل، فقد كانت أسرته من تلك الأسر التي صنعت تاريخ الأندلس. عمّرت حياته في صباه بالدرس والتحصيل، فأخذ المنطق عن محمد بن الحسن القرطبي، وأخذ الحديث عن يحيى بن مسعود، وأخذ الفقه الشافعي عن شيوخ قرطبة، ونشأ شافعي المذهب ثم انتقل إلى المذهب الظاهري حتى عرف بابن حزم الظاهري. عانى ابن حزم من الفتنة التي شبت بقرطبة، وكتب متمثلاً تلك الفترة في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف). ثم ترك قرطبة واستقر بمدينة ألمرية، وكان مشغولاً بهاجس السياسة وإعادة الخلافة للأمويين. ولقي من جراء ذلك عذاباً كثيراً؛ فظل يعاني النفي والتشريد بعيداً عن قرطبة، ويحن للعودة إليها. ولما سقطت الخلافة الأموية نهائياً بالأندلس وزالت دولة الأمويين، تفرغ ابن حزم للعلم والتأليف. فأنرى المكتبة العربية بمؤلفات مفيدة في مختلف فروع المعرفة من أشهرها: الفصل في الملل والأهواء والنحل؛ طوق الحمامة؛ جمهرة أنساب العرب؛ نطق العروس؛ ورسالته في بيان فضل الأندلس وذكر علمائه؛ الإمامة والخلافة؛ الأخلاق والسير في مداواة النفوس والمحلى بالآثار؛ الإحكام في أصول الأحكام..

إمام النحو ابن مالك الأندلسي:

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبّاني وتشير أكثر الروايات إلى أن ابن مالك ولد في الأندلس سنة (٦٠٠ هـ)، بدأ دراسته في بلده بحفظ القرآن الكريم، ودراسة القراءات والنحو والفقه على مذهب الإمام مالك، فأخذ العربية

والقرآن بجيّد عن ثابت بن خيار الكلاعي من أهل لبّة. وقد ذكر ابن مالك لبعض تلاميذه أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلده جيان، وأنه جلس في حلقات الأستاذ أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً.

قدم ابن مالك إلى دمشق وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن الصباح، وأبي الحسن السخاوي، وغيرهم. ثم توجه ابن مالك إلى حلب وتلقى النحو على ابن يعيش شارح المفصل للزمخشري، وعلى تلميذه ابن عمرون، وأغلب الظن أنه حضر جانباً من شرح المفصل عند ابن يعيش.

وقد نبغ ابن مالك في اللغة والنحو نبوغاً عظيماً حتى صار مضرب المثل في معرفته بدقائق النحو والصرف واللغة وأشعار العرب. وقد قدم للتدريس في مدينة حلب بعد أن أتم دراسته اللغوية، وكان إمام المدرسة السلطانية فيها، فأخذ يلقي بحلب دروسه في النحو ويؤلف، وهناك نظم (الكافية الشعرية). ثم ارتحل إلى حماة من البلاد الشامية وأقام بها ونشر فيها علمه وتابع دروسه في النحو ونظم ألفيته المشهورة، وهي خلاصة الكافية الشافية. ثم تحول ابن مالك إلى دمشق حيث أقام بها يشتغل بالتدريس والتصنيف، وتكاثر عليه الطلبة وحاز قصب السبق، وصار يضرب به المثل في معرفة دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب، وألف المصنفات المفيدة في فنون العربية ومن ذلك كتاب (التسهيل) الذي لم يسبق إلى مثله.

وقام بالتدريس في الجامع الأموي والمدرسة العادلية الكبرى بدمشق، وقد عين إماماً لها، وكان أكثر ما يلقيه على تلاميذه النحو، كما كان يدرّس القراءات. قيل: كان يخرج على باب مدرسته ويقول: هل من راغب في علم الحديث أو التفسير أو كذا أو كذا قد أخلصتها من ذمتي؟ فبأذا لم يجب قال: خرجت من آفة الكتمان.

ومن أشهر مؤلفاته:

١ - الكافية الشافية: وهي منظومة طويلة تقع في حوالي ثلاثة آلاف بيت من بحر الرجز، تضم النحو والصرف، وقد شرحها ابن مالك. وقد

طبع الشرح في جامعة أم القرى بتحقيق الدكتور عبد المنعم هريدي.

٢- الخلاصة أو الألفية: وهي منظومة تقع في نحو ألف بيت من الرجز، أودع فيها ابن مالك خلاصة الكافية الشافية من نحو وتصريف، وقام بشرحها كثير من العلماء، ومنهم الأشموني وابن هشام والمرادي وابن عقيل.

٣- التسهيل، أو تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: وقد قام بتحقيقه الأستاذ محمد كامل بركات وطبع في القاهرة بإشراف وزارة الثقافة، وقد اعتنى به كثير من العلماء وشرحوه. ومن أشهر شروحه (التذيل والتكميل) لأبي حيان الأندلسي في عدة مجلات، وتعليق الفرائد للداميني والمساعد لابن عقيل.

٤- وقد شرح ابن مالك كتاب (التسهيل) ولكنه لم يتمه، ووصل فيه إلى باب المصادر.

٥- شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، وقد قام بتحقيقه الدكتور عدنان الدوري وطبع في بغداد سنة ١٣٩٧ هـ.

٦- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: وهو تعليقات ومناقشات قيمة لمشكلات الإعراب في صحيح الإمام البخاري. وقد حققه ونشره محمد فؤاد عبد الباقي في القاهرة عام ١٣٧٦ هـ.

٧- لامية الأفعال: وهي منظومة لامية في (١١٤) بيتاً من بحر البسيط، وقد شرحها ابن مالك، وشرحها كذلك ابنه بدر الدين وغيره.

ج- علماء التاريخ والجغرافيا: البكري:

أول الجغرافيين الكبار بالأندلس هو أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري من أهالي قرطبة ولد فيها سنة (٤٣٢ هـ) وفيها توفي (٤٨٧ هـ)، وكان البكري من بيت معروف بالعلم ومشهور بالشرف فنشأ نشأة علمية في عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والأدباء على الرغم من التفتت السياسي الذي منيت به بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة فيها..

أقام البكري في قرطبة في ظل بني جهور أصحاب هذه المدينة وهناك اتصل بالمؤرخ

القرطبي الكبير ابن حيان وقد كان لهذا الاتصال أثره في تكوينه التاريخي.. ثم رحل بعد وفاة ابن حيان في سنة ٤٥٦ هـ إلى المريّة ثم إلى اشبيلية واستقر فيها في كنف المعتمد بن عباد ولم يغادر البكري الأندلس في حياته أبداً ولذلك فإن كتبه الجغرافية لا تعدو أن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين ويعتبر كتابه (المسالك والممالك) أعظم ما صنّفه سوى الجزء الخاص ببلاد المغرب وقد ضمّن كتابه أحداثاً تاريخية هامة جداً استقاها من محمد بن يوسف الوراق وهو مؤرخ مغربي هاجر من القيروان واستقر في قرطبة. وفي كتابه (معجم ما استعجم) أثبت أسماء الأماكن التي جاء ذكرها في أشعار العرب.

ابن خلدون

ما زال التراث الغزير الذي تركه ابن خلدون يحتفظ بقيمته وروعته، ويتبوأ مكانة عالية بين تراث التفكير العالمي، وما زالت الدراسات التي تصدر وتبحث في فكر هذا العالم تحظى بالاهتمام من قبل الكثيرين فكيف عاش ابن خلدون حياته؟ ومتى بدأ كتابة مؤلفته التاريخية الضخم وماذا يضم؟ ولد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢ للهجرة وسنة ١٣٣٢ للميلاد في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس في أواسط القرن السابع الهجري ويرجع أصل ابن خلدون إلى العرب اليمانية في حضرموت ونسبه إلى وائل بن حجر وبما أن ابن خلدون سليل أسرة عريقة ونابهة فقد تتلمذ على يدي أبيه الذي كان معلمه الأول إذ قرأ القرآن وحفظه وتفقه في القراءات السبع ودرس شيئا من التفسير والحديث والفقه كما درس النحو واللغة على يد أشهر الأساتذة في تونس التي كانت مركزاً للعلوم والآداب في بلاد المغرب وكانت منزلاً لعدد كبير من علماء الأندلس الذين شتتتهم الحوادث، أو ضاق بهم الوطن وقد عكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة حيث طافت بالمغرب تلك الكارثة التي نكبت العالم الإسلامي كله من سمرقند إلى المغرب أي الفناء الكبير أو الطاعون الجارف والذي هلك فيه والدا المؤرخ وجميع شيوخه،

ومعظم سكان تونس ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة في لهجة مؤثرة فيقول إنها: طوت البساط بما فيه. وفيها يقول أيضاً: ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله لهذا فقد أراد النزوح إلى المغرب الأقصى الذي نزع إليه بعض شيوخه وأصحابه إلا أن أخاه الأكبر محمد رده عن عزمه ولم يمض وقت طويل حتى استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس آنذاك لكتابة العلامة عن محجورة وأسيره السلطان الفتى أبي إسحاق وكتابة العلامة هي التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية وكان المؤرخ يومئذ حدثاً دون العشرين بعد ذلك انتقل إلى فاس وانتظم في بلاط أبي عنان الذي ولاه رغم حداثة سنه منصب الكتابة واختصه في مجلسه للمناظرة والتوقيع عنه، إلا أن الدسائس والوشايات أوصلته إلى السجن حيث كتب قصيدة للسلطان استعطفه فيها للإفراج عنه يقول فيها: على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف للزمان أغالب كفى حزناً أني على القرب نازح وأنني على دعوى شهودي غائب وأنني على حكم الحوادث نازل تسالمني طوراً وطوراً تحارب فعفا عنه السلطان إلا أنه توفي قبل موعد الإفراج عنه لكن الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر الدولة أخرجه من سجنه ورده إلى سابق وظائفه بعد ذلك انتقل إلى الأندلس وقربه السلاطين والأمراء إلى بلاطاتهم وقلدوه المناصب السياسية إلا أنه أثر العودة إلى المغرب زاهداً في العمل السياسي معتكفاً للتأليف وفي هذه العزلة التي فرضها على نفسه بدأ بكتابة مؤلفه التاريخي وكان يومئذ في الخامسة والأربعين من عمره حيث نضجت تجاربه ومعارفه واطلاعاته وبما أن ابن خلدون خاض معترك السياسة على مدى ربع قرن متقلباً في خدمة القصور والدول المغربية التي عرف أخبارها وتقاليدها وعادات مجتمعاتها، وكان ذكياً، حاذقاً فقد ساعده ذلك في كتابة مقدمة تاريخه الذي أنجزه بعد خمسة أشهر من البدء فيه بعدها شرع في كتابة تاريخه الذي دون فيه تاريخ العرب والبربر وزناته أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخيرة، ولم يكن في ذهنه إن يكتب تاريخاً عاماً للخليفة كلها، بل كان قصده الأساسي

أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية ولما كان ينقصه في مكانه الذي اعتزل به الكثير من المراجع فقد عاد إلى بلده تونس الغنية بمكتباتها ومراجعها وهياً له سلطانها كل أسباب الراحة فعكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه الذي ضم المقدمة وأخبار البربر وزناته وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة. لكن خصومه لم يتركوه في مأمن من العيش وحين أحس بدسائس هؤلاء اضطر أن يلتمس الحج عذراً للرحيل والنجاة فقدم إلى الإسكندرية ١٣٨٢م ثم إلى القاهرة التي نال فيها كل التقدير والاحترام لأن شهرة مؤلفه كانت قد سبقته إلى هناك فأخذ يدرس في الأزهر الحديث والفقه المالكي ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول وكانت هذه الدروس تنبئ عن غزير علمه وسحر بيانه. وقد تقلد في مصر منصب القضاء بعد ذلك انتقل إلى دمشق وحاول الاتصال بتيمورلنك لتحقيق مكاسب سياسية لكن أمانيه لم تتحقق فعاد إلى مصر ليستقر في القاهرة ساعياً لتسلم منصب القضاء وقد ولي هذا المنصب مرات عديدة وعزل منه بسبب الدسائس والوشايات، وقد قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاماً كان فيها قليل الإنتاج حيث لم يكتب سوى بعض الإضافات على المقدمة والتاريخ كما كتب ترجمة عن حياته أثناء إقامته بمصر واستمر فيها إلى قبيل وفاته وضمنها فصولاً جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ونشأة التتار وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة وفي ١٦ آذار سنة ١٤٠٦ للميلاد وبعد حياة حافلة بالحوادث السياسية والفكر المتميز توفي المؤرخ الكبير والمفكر العالم بعد تعيينه قاضياً للمالكية وكان قد بلغ الثامنة والسبعين من العمر ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر وهي مقابر العظماء والعلماء وهكذا نجد أن ابن خلدون عاش في المغرب سياسياً ولكنه عاش في مصر عالماً وقاضياً، ما عدا الفترة التي اتصل بها في دمشق بتيمورلنك وما يمتاز به ابن خلدون عن جميع المؤرخين المسلمين أنه نظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط وقد كتب مقدمة مؤلفه التاريخي لتكون

شرحاً وتمهيداً يقرأ على ضوئها التاريخ وتفهم وقائعه.

الشريف الإدريسي (٥٦٠هـ - ١١٦٠م): أشهر جغرافي الأندلس. في كتابه (نزهة المشتاق) الذي أهداه إلى (روجيه الثاني النورماندي) ملك صقلية وعرف بكتاب روجيه، تكلم الشريف الإدريسي عن أقاليم العالم كلها وخاصة أوروبا، وقد وضع الخرائط الدقيقة التي توضح جانباً من مواقع الأماكن الواردة في الكتاب. ويمتاز الكتاب بدقته في حساب الأطوال والعروض للبلاد المختلفة بعد تقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم ثم تقسيمه هذه الأقاليم إلى عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق، فصار مجموعها سبعين قسماً، ووضع لكل قسم خريطة خاصة زيادة على الخريطة الجامعة.

د - الموسيقى والغناء:

العمل الفني في الأندلس تغير بظهور الموشح والزجل وإدخالهما في النوبة الغنائية الأندلسية بعدما كانت على عهد زرياب وعهد الطنبوريين معتمدة على النشيد والصوت فقط، فهي ومنذ ظهور هذا العمل الأندلسي الأدبي ولت من نشيد وصوت، وموشح، وزجل فبعد أن كان المغني يكذب ويجتهد في البحث والتنقيب ويجهد نفسه جرياً وراء جملة من الأشعار المختلفة الموافقة للمناسبات والأصناف والجلسات الفنية، أصبح في متناوله عمل متكامل موحد في موشحات أو زجلية. ومشتمل على وحدة الموضوع مع الانطلاق الخيالي في حرية التعبير.

فالشاعر الموشح والزجل الأندلسي لم ينتج من شعره دوراً واحداً في موشحته أو زجلية ذلك الدور الذي عرف في طربنا الموسيقي باسم (الصنعة) المشتملة أسماء ومراكز بل اخترع موشحاته وزجلياته من أدوار عدة أغلبها من خمسة أو ستة أدوار وربما وصلت إلى سبعة أو تسعة في عهود لاحقة.

وهذا دفع الملحن لإفراغ لحنه بل ألحانه على تلك الأدوار جاعلاً لكل دور لحناً منفرداً فأعطى لكل دور في الموشحة أو الزجلية روحاً حية يزدهر بها الموشح الواحد مبرزاً في ذلك فكرة المودلسيون أو تعددية الأنغام اللحنية.

ولقد جربت هذه المنهجية مع المرحوم الأستاذ محمد العربي التسماني سنة ١٩٨٢ م و طبقنا الفكرة على موشح - هل دري - لابن سهل بعد عرضي لموضوع علاقة الموشح بالموسيقى. منذ عهد أجدادنا وإلى وقت قريب كان هناك من يستعمل هذا الصنف من الغناء مضمناً صنائع مختلفة مرتبة حسب ميزان واحد في تنسيق وانسجام أطلقوا عليه مصطلح (دوش عمليين) إذ اللحن الذي ينطلقون منه يرجعون إليه في الختام. ثم جاء من أعطى لهذه المنهجية أو هذا العمل الفني اسماً آخر أطف وأجمل وهو العلامة العارف الرباني القطب سيدي عبد السلام بن ريسون وسي (قدام القدام) باسم: (ترصيع النغم لصنائع) فمنهجية ابن باجة - الأعلام - حسبما أثبتته التيفاشي كانت من وحي البيئة الأندلسية كما أن إنتاج الموشح والزجل جاء من تفاعل الشاعر مع البيئة، يقول التيفاشي ابن باجة الإمام الأعظم: (اعتكف عدة سنين مع جوار محسنات فهدب الاستهلال والعمل، ومزج غناء النصاري بغناء المشرق وأخترع طريقة لا توجد إلا بالأندلس مال إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها وأنتج موشحته الفريدة - من الخفيف وهي موشحة مرووسة ومن خمسة أدوار والتي مطلعها جرر الذيل أيما جر وصل السكر منك بالشكر فغنتها تلك القيان مطربة شجية جمعت في منهجية بين الأنغام العربية والنصرانية منسجمة في ألحانها. إذ ليس من المعقول أن يكون عمل الموشح والزجل من الأعمال أو الإنتاجات التي ظهرت في الأندلس وشبت وترعرعت في البلاد المغاربية وتنظيرها آت من بلاد المشرق ولا يستهان بما قام به أهل المشرق في هذا المجال لأنهم في ذلك يقربون هذا العمل لأهل المشرق، أما أهل الغرب الإسلامي في الأندلس والمغرب فإن الموشح والزجل - منهم وإلهم ورحم الله ابن بسام الذي خلف نصف صفحة من ذخيرته مشتملة على مصطلحات أندلسية في عمل الموشحات، كما لا نفرق في عمل الموشح والزجل من حيث البنية ومن حيث المصطلحات المشتركة بينهما فانظر في ذلك ديوان ابن قزمان وديوان ابن عربي فيما خلفه من توشحات حسب المصطلحات الأندلسية من إنتاجاته وتضميناته التي تعتبر حسب المفهوم الشرقي.

طالعوا صباح كل سبت

الأسبوعية
الثقافة

مجلة فكرية جامعة تصدر في دمشق

السعر (٣٠) ل.س

مؤسسها ورئيس تحريرها

مهاجدة عكاش